ليس الإرهاب عربيا

تؤكد القاعدة الإسلامية المؤيدة بنص قرآني بأنه من آمن أمن ومن أسلم سلم، ومن نفذ شروط الأمن والسلامة المحمدية لـه السلام والأمان حيث جاء قولـه سبحانه وتعالى:{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال٦].

وقولـه عز جلالـه:{إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [النساء ٩٠].

ومن لم يعرف الإسلام وفضائله نسوق إليه ما قاله جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي في زمن الهجرة إلى الحبشة، فقد ورد في سيرة ابن هشام أن جعفرا قال:

" أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا".

هذه واحدة من رسائل الضوء المبين، تلقي بأنوارها على حياة العرب في

الجاهلية، وأوضاعهم بعد ذيوع دعوة الإسلام، وهى إلى جانب ذلك رسالة كاشفة لم تفح منها أى رائحة تشير بأن المسلمين من دعاة الظلام والعنف والإرهاب، ولم يجل في خاطرهم يوما أنهم يميلون إلى العنف والإرهاب، وأن الإرهاب الذي انتشر في الوقت الراهن له جذوره القديمة، وأنه إذا كان نما وتفشى فليس على يد أحد من المسلمين.

وللحقيقة يمكن لمن ليس في قلبه مرض أن يصل إلى مصادر الإرهاب من خلال سرديات الغرب وأدبياته السياسية، ولسوف يكتشف للوهلة الأولى أن الإرهاب ليس عربي النشأة والولادة، وأن العنف الذي يمارس ضد شعوبنا العربية يحمل على كاهله تاريخ الغرب الصليبي والصهيونية العالمية، وأنه ليس من مظاهر هذا الزمن، بل إن عمره يمتد إلى عصر المسيحية الأول.

يتجلى ذلك الإرهاب بوضوح معلنا عن نشأة السادية في حادثة إحراق اليهود للمسيحيين اليمنيين حيث حفروا لهم أخدودا في الأرض بعد أن ثبت لهم أنهم يدينون بالمسيحية.

وقد وردت هذه الحادثة في قول الله سبحانه وتعالى:**{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [البروج ٤ - ٨].

ومن المؤكد لذوى العقول أن هذه المحرقة التى صنعها أحد اليهود قديما أخذ عنها الألمان - حديثا - ما يسمى بالمحرقة أو الهوكولوست، وكان الدافع دينيا، دين يريد أن ينحر ديناً، فإيمان النصارى بالله العزيز الحميد، دفع ذلك اليهودي لصنع أول محرقة للبشرية في التاريخ.

"قال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ، بأربعين سنة، أخذهم يوسف شراحيل بن تبع الحميري (يهودي)وكانوا نيفا

وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدودا وأحرقهم فيه [١] .

ومع الفارق في التسامح والمودة التي يشيعها الإسلام بين كل من اتصل بهم من أمم وأجناس، يقول كاتب مسيحي في شهادته:

"إن من بقي من هؤلاء النصارى موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة - إنما هم شهود عدل عبر التاريخ - ليس على سماحة الإسلام وهو تعبير لا يفي الواقع، لأن وجودهم أهل ذمة في الماضي، إنما كان مبنيا على قاعدة شرعية،وليس على شعور من طبيعته أن يتضاعف أو يضعف وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي جاء في القرآن، وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعيه الكاملة، بل وأيضا بالمواطنة الشاملة في عصرنا الحاضر [٢].

ومن عرف الإسلام آمن بدعوته، فالإسلام كلمة تحمل مدلولات السلام والسلم، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، ومن أسماء الله الحسنى "السلام".

ويلاحظ أن العنف الذي كان يوجه ضد النصارى في مرحلة ما من قبل اليهود، عاد على أيدي النصارى أنفسهم، ليعطينا فكرة عن الإرهاب الديني الذي مورس في صحن الحرم الكنسي ضد كل صاحب مفهوم عقدي آخر.

"وقد حصلت أمور أخرى أكثر بشاعة (١٢٠٤م) عند الاستيلاء على القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة، كان الصليبيون متجهين نحو مصر لكنهم اتبعوا نصيحة الكسوس بن إسحق أنجلوس إمبراطور بيزنطة المخلوع، وقصدوا القسطنطينية من أجل إعادته إلى العرش مع أبيه، لم يوفق هذا التدخل الغربي في شؤون السياسة البيزنطية، وفى نهاية الأمر ضاق الصليبيون ذرعا

---

١ - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٩ بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ ص ٢٨٩.

٢ - د. أدمون رباط. المسيحيون في الشرق قبل الإسلام، المحرر إلياس خوري، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية ط١ سنة ١٩٨١ ص.٢٨

بما أسموه خداع اليونانيين، وعملوا في المدينة السلب، ولم يكن الشرق المسيحي لينسى قط أيام السلب الثلاثة الرهيبة هذه.

قال فيستاس محتجا على هذه الأحداث: "حتى البربر رحيمون وطيبون إذا ما قيسوا بهؤلاء الرجال الحاملين صليب المسيح على اكتافهم. "[١]"

وكما ظهرت هذه القوى الارهابية المتصارعة في اليهود ظهرت كذلك في المسيحية، إزاء هذه القوى لابد من وقفة للتفريق بين هاتين الديانتين وبين الدين الإسلامي في دعوته للعالمية أو للإنسانية.

لم تسوِ هاتان الديانتان بين من تتجه اليهم بدعوتها، بل كانت عند ما تتأرجح مثلها، تدعو الناس إلى عبادة إله في السماء وامتثال وخضوع لكاهن، فكانت دعوة السماء في خدمة سيادةالتناقض في الأرض، وهذه إحدى مظاهر الإفلاس الديني قبل الإسلام، وهى تعد من التداعيات والتراكمات الاجتماعية التى تفتقت عن عصر الإرهاب الديني.

من جانبنا سنتجاوز ما لقيه المسلمون على أيدي نصارى الأندلس من قتل وسحل وحرق وتمثيل بالجثث لننظر في مصطلح الإرهاب فوجدناه يشكل ظاهرة اجتماعية عمادها اللجوء إلى العنف، ويمكن تعريفه بأنه:

"استعمال قوة كبيرة أو مدمرة ضد الناس أو الأشياء، استعمال قوة مما ينتهك قاعدة من قواعد السلوك، وفي غاية الوضوح أن هذا القول لا يعني أن نفترض مسبقا للرأي النهائي، أن فعلا من أفعال العنف يجب أن يكون خاطئا بالضرورة[٢].

تضاربت الأقوال في العصر الراهن حول هذه الظاهرة العالمية، وقد بات

---

١ - ثيموثي وير، الكنيسة الأرثوذكسية في الماضي والحاضر، بيروت، منشورات النور سنة ١٩٨٢ ص.٨٤

٢ - تيد، هندريش، العنف السياسي، ترجمة عبد الكريم محفوظ وعيسى طنوس، لا بلد نشر، ط١ سنة ١٩٨٦ ص.١٤١

من المؤكد أن جميعها لم تقطع بتعريف محدد:

"ورغم كل هذه المحاولات الجادة لدراسة الإرهاب الدولي فإن تعريفه لم يتحدد قانونيا حتى اليوم، وما يزال مجرد شعار سياسي يطرح عشوائيا، ولكى يصبح الإرهاب الدولي جريمة في نظر القانون الدولي، يجب أن يكون له تعريف واضح ومقبول دوليا وأن تتحد هيئة دولية معينة بمحاكمة الدول والجماعات التي تقوم بأفعال الإرهاب، وهذا لم يقم بعد [1] .

غير أن ذلك لم يمنع من وجود وجوه عديدة له الشائع منها تخريب المنشآت الحيوية، تدمير البنى التحتية، القضاء على حياة أناس تراق دماؤهم بلا سبب سوى أن قدرهم دفعهم إلى محيط بعض العمليات الإجرامية أثناء القيام بتنفيذها.

ومن مظاهر ذلك - أيضا - ما يتعرض له المسلمون من أذى على أيدي الأمريكان وهو عدوان صارخ على الشعب العربي في فلسطين والعراق وأفغانستان ولذلك تصنع أمريكا أذنا من طين وأخرى من عجين ولا تستجيب للنداءات الدولية الملحة على عقد مؤتمر دولي يعالج مشكلة الإرهاب ويصدر فيها قانونا قاطعا يلزم الحكومات، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية وربيبتها إسرائيل كانت ولا تزال تحول دون قيام هذا المؤتمر.

لماذا؟

لأن طرح موضوع الإرهاب على بساط البحث سيتطرق بالتبعية إلى وسائل النضال والمقاومة المشروعة من أجل تحرير الأوطان، وهذه النقطة بالذات ترى أمريكا أن من مصلحتها ومصلحة إسرائيل ألا يتصدى لهما أحد بالمناقشة حتى يمكنهما القضاء على الشعوب التى تناضل وتقاوم من أجل نيل

---

١ - د. عدنان السيد حسين، الانتفاضة وتقرير المصير، بيروت، دار النفائس، ط١ سنة ١٩٩٢ ص ٤٦.

حقوقها المشروعة في الاستقلال والحرية.

وبداية فإن القوات الأمريكية في العراق وأفغانستان تطلق العنان لقوات المارينز وقوات التحالف من أجل القضاء على المقاومة الإسلامية، وإيقاع الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، والعمل لإظهار المقاومة في شكل دموي وإجرامي، وعدم التخفيف من تنفيذ المجازر في(بعقوبة) والمدن السنية، (الفلوجة، الأنبار، تلعفر، سمراء، الفاتح).

ومع أن الخسائر التي وقعت في صفوف القوات الأمريكية قد بلغت في العامين الأوليين من احتلال العراق ما يزيد على (٢٠٠٠) جندي يضاف إليهم الآلاف من الجرحى، وأن تكاليف المعارك وإدارة شؤون الحرب بلغت أكثر من (٣٠٠) مليار دولار خلال عامين، أما بريطانيا فقد أنفقت على الحرب في العراق ما يزيد على ٣.٥ مليار جنيه إسترليني.

ولو كانت أمريكا صادقة حقا عندما اتجهت إلى العراق لإسقاط الديكتاتورية وإشاعة الديمقراطية لعجلت بانسحاب قواتها بعد سقوط النظام البعثي.

لكن لا تزال على أجندة البنتاجون مخططات ترمي إلى اجتياح بلدان عربية وإسلامية تحت أوهام ما تطلق عليه محاربة الإرهاب والقضاء عليه.

وإذا كان في استطاعة العقل الإنساني أن يسوغ استخدام العنف من أجل تحقيق هدف يرى فيه الكمال، فمن الذي يستطيع أن يجزم بعد ذلك بأن قيمة هذا الهدف تساوي حجم الجرائم التي ارتكبت في حق البشرية؟

* * *

لا علاقة لحركة التاريخ بالرسالة الإسلامية

ذكر بيير دابي في "مجموعة الأسفار والاكتشافات(مدريد ١٨٢٥)" والمسيو سيديو في كتابه "تاريخ العرب (باريس ١٨٥٤م.)".

"كان العرب وحدهم ممثلي الحضارة في القرون الوسطى ودحروا توحش أوربا التى زلزلتها غارات الشمال"

والسؤال:

من الذي استفاد من تلك العلاقات سلفا ولا حقا؟.

قد تطمس معالم الحقيقة في بعض الأحيان، وقد تأخذ ظاهرة الاختلاف بين العلماء صبغة من ألوان الاجتهاد للوصول إلى رصد الحقيقة، ولكن ما لا خلاف فيه أن الأمال التي حفزت المسلمين للخروج من مهد الجزيرة العربية للإنتشار على أرض فارس والهند والروم هى التي أعطت للجهاد الإسلامي زخما وعمقا انسانيا رفيعا أسفر عن تكوين هلال يمتد قرناه في أوربا من الشرق والغرب، وأطل على الأطلسي، ثم امتد في قلب آسيا وجزائرها الشرقية، وفي قلب افريقيا وغربها، ليحقق الإسلام أول مدنية عالمية.

بلا سيوف.. بلا دماء، ولا خراب شامل، غمرت النهضة العالمية جميع البلدان التى دخلها المسلمون وفجت الأنوار من الاندلس على أوربا خلال العصور الوسطية حيث كانت فيها أوربا أسيرة التخلف دون أن تتخلى الأندلس عن الدين وعن شخصيتها العربية المستقلة.

ولن نأت بشاهد من عندنا ليتكلم عن المسلمين بخير، اذ لا يزال في بلاد الغرب اصحاب اقلام صدق نذكر منهم ما كتبه (ميشون) في "تاريخ الحروب الصليبية":

"منع محمد قواده من قتال الرهبان لأنهم رجال صلاة ولما استولى عمر

على القدس لم يمس النصارى بسوء، وبالمقابل لما صار الصليبيون سادة هذه المدينة ذبحوا المسلمين بلا رحمة وحرقوا اليهود"

ويذكر ميشون في كتابه "رحلة إلى الشرق":

"إنه من المحزن لدى الأمم النصرانية ألا يكونوا قد تعلموا من المسلمين التسامح الديني الذي هو دستور الاحسان من شعب إلى شعب"

ويقول جوستاف ليبون في "حضارة الغرب"

"لم تكن القوة عاملا في انتشار القرآن قطعا، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في المحافظة على دينهم، وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب النصرانية دين غالبيتهم فذاك لأن الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلا نحوها مما كان عليه سادتها السابقون، ولان دين هؤلاء الفاتحين كان من البساطة مالم تعرفه الشعوب النصرانية حتى ذلك الحين، ولم يفرض القرآن بالقوة بل بالإقتناع، وبلغ من انتشار القرآن في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، في الحقيقة أن زاد عدد اتباعه فيهااليوم على خمسين مليونا (كان ذلك عام ١٨٨٤م)".

ويضيف غوستاف ليبون:

"ويرتفع عدد هؤلاء يوما بعد يوم، ومع أن الانجليز الذين هم سادة الهند الحقيقيون في الوقت الحاضر يجهزون فيها جيشا حقيقيا لتنصير المسلمين، فلا يوجد مثال واحد ثابت كللت فيه جهودهم بالنجاح".

لماذا؟

لأن الإسلام نشر قاعدة العدل بين الأفراد والأمم:{إِنَّ اللَّـهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءوَالْمُنكَرِ وَالْبَغْـيِ يَعِظُكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل٩٠] ونهى القرآن هن محاورة أهل الديانات الأخرى الا بالتي هى أحسن:{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِـنْهُمْ

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لـه مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٦].

يحترم الإسلام عقائد الآخرين:{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُمِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِاسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة٢٥٦]،{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦].

وقد بشر الدين الإسلامي بالمبادئ الأخلاقية والأسس الكريمة التي تكفل إقامة نظام عالمي جديد، قائما على الأخوة الانسانية وعلى التآلف أساسا للتعايش بين مختلف الأجناس.. قال تعالى{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

وبما أن الإسلام دين التكافل فانه لا يلزمك أن تكف الأذى عن الغير فقط، بل يلزمك شرعا أن تكف عنه أذى غيرك وأن تسعفه بكل ما في وسعك لانقاذ حياته والحفاظ على ماله والدفاع عن عرضه، وإذا لم تفعل ذلك تكون من الآثمين،وله أن يخاصمك أمام القضاء ويلزمك بالضمان إذا لم تنقذ شخصا من الحريق، أو تسعف أعمى يتردى في هاوية، أو تغيث من يطلب منك الإغاثة والمدد حتى ولوكان على غير الإسلام وجاء في هذا قول الله تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ} [التوبة: ٦].

وتقضي سماحة الإسلام، أن يجير المسلم من استغاث به، وأن يقوم شرع الله بالحكمة والموعظة الحسنة لأن جهله سبب شركه، فإن أبَى أن يستجيب فعلى المسلم ان يوصله إلى بر الأمان دون تعرضه لأذى.

كما كفل الإسلام للمسافرين حقا على الناس المقيمين بأن يهدوه إلى الطريق وأن يعطوه مالا - إذا كان محتاجا - من الزكاة لأنه ابن سبيل.

ومن الثابت أن قاموس اللغة العربية لا توجد فيه كلمة "ارهاب" وأن كلمة "عنف" لم ترد في القرآن الكريم إطلاقا كما أن الرسول ﷺ لم يدع أبدا للعنف حتى في أيام حصار المشركين له ومحاولة قتله، لأنه رسول الأخلاق الحميدة والرحمة المهداة من رب العالمين، فأيآت القرآن الكريم التي ذكرت بها كلمة "الرحمة" ومشتقاتها. تجاوزت (٣٠٠) ثلاث مائة آية{بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، و{نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر: ٤٩]، ويصف الله عز جلاله الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم:{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩].

وهناك؟؟؟ من لم يزل - وهو على غير دين الإسلام - يقول كلمة حق وصدق في العرب، فمن رسالة للبطريرك "مرو" إلى اسقف فارس في عهد الخليفة عثمان بن عفان جاء فيها:

"إن العرب الذين أتاهم الله الملك (ملك الأرض) لا يتعرضون لدين المسيح، بل على العكس يساعدوننا في ديننا، ويحترمون ربنا وقديسنا ويسبغون الهبات على كنائسنا وأديرتنا"

ومن لا يذكر ومدونات الأيام تشهد أن خلفاء الدولة العباسية أنشأوا كما فعل منافسوهم في قرطبة ادارة خاصة بحماية أهل الذمة وتأمين مصالحهم حرصا منهم على صالح رعاياهم غير المسلمين، وكان رئيس هذه الإدارة يسمى في بغداد كاتب الجبهذة، وفي الأندلس كاتب الذمام.

كانت موقعة القادسية التي ألقت بزمام فارس في أيدي المسلمين بشير النجاة لمعظم أهل فارس، كما كانت واقعة اليرموك وأجنادين بشير النجاة لأهل الشام والروم والمصريين.

إن الديانات السماوية مثالية، وفردوس الله الخالد ليس كمدينة الماديين الفاضلة، ورسالة الإسلام للبشرية جمعاء ليست من انتاج حركة التاريخ ولا

التفكير الهيجلي والداروينى، والا لجاءت عقيدة الإسلام مطابقة لأفكار سكان الجزيرة العربية وأقرت عاداتهم البالية:

١- لقد حرم الإسلام الأخذ بالثأر وهو من القيم الجاهلية.

٢- حرم الإسلام الربا والاستغلال وهذا ما كان من أعراف الجاهلية.

٣- حرم الإسلام الميسر والسرقة وشرب الخمر والاعتداء والغزو وهذا ما كان يمارسه العرب في جاهليتهم.

٤- حرم الإسلام وأد البنات وهذا ما كان يحدث خشية العار أو الفقر في الجاهلية.

"وبناء على ما تقدم تقرر أن لا علاقة لحركة التاريخ بنزول الرسالة الإسلامية، وانما العلاقة كل العلاقة لله سبحانه وتعالى الذي بعث بالأميين رسولا منهم يهديهم إلى سواء السبيل"[١]

"ونحن نتناسى كثيرا أن مانطلق عليه اسم "عصر النهضة" في الغرب لم يبدأ بالفعل في ايطاليا بعد صحوة العصور اليونانية الرومانية التي تختلف عن النموذج اليهودي المسيحي، ولكنه قام بالفعل قبل ذلك بثلاثة قرون عند فتح العرب الجامعة الإسلامية في قرطبة باسبانيا، ونشر الترجمات العديدة للكتاب العرب كما شجعهم على ذلك القسيس ريموند من توليدو.

"وهكذا فبدلا من أن يترجم هذا الصراع بين النزعة اليونانية - الرومانية وبين النزعة اليهودية - المسيحية، صراع بين العلم والايمان، وبين الدولة والمسيحية، بين الفرد والمجتمع، فان هذا التراث العربي الإسلامي ككل كان على العكس يسمح بتعايش جميل بين السماوية والروحانية الخاصة بعقيدة إبراهيم التي يؤمن بها اليهود والمسيحيون والمسلمون على حد سواء"[٢]

---

١ - محمود السيد غنيم، المادية التاريخية بين الوهم والواقع دار الحداثة للنشر والتوزيع. لبنان، ط١سنة ١٩٨٦ص٣٠٤"

٢ - رجاء جارودي وحضارة الإسلام. إعداد أمينة الصاوي و د. عبد العزيز شرف - مكتبة الفجالة ص١٧١.

ليس الإسلام اذن كما ذهب بعض المستشرقين "يدعو إلى التقدم إلى الأسوأ" وإذا كانت حدثت بعض التجاوزات في مرحلة من التاريخ فذلك وارد عند ارساء قاعدة عالمية جديدة تنشد الخير والرفاهية لمختلف الأعراق والأجناس، ومن المؤكد أن الأضرار التي لحقت بالبعض ليست في الإسلام ولا من الإسلام في شئ، ولكنها من بعض الولاة الذين استبد بهم بريق الحكم، وآخرون كان يغلب عليهم الحرص على أمن الإسلام، ويظهرون الميل إلى الشدة وليس في كل الأوقات.

ورحم الله الكندي فيلسوف الإسلام في قوله:

"وينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة لنا فانه ليس أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير قائله، ولا الآتي به، ولا أحد يبخس بالحق، بل كل يشرفه الحق"

في أعقاب عهد الخلافة الراشدة، وقعت المآسي التي لا يزال العرب والمسلمون يعانون من اسبابها حتى الآن، ثمة شئ من هذا نطالعه في رسالة الجاحظ: "النابتة" وفيها يرى أن الإسلام مر بمرحلة التوحيد، ثم الفجور، ثم الكفر.

"والجاحظ كان معتزليا، وله هوى عباسي، ويقصد بالمراحل الثلاث: العهد النبوي وفترة الخلافة الراشدة إلى مقتل عثمان وهو أول الفجور، ثم الكفر بمجئ بني أمية.

ولقد قاوم الامام على كرم الله وجهه هذا "الفجور" وانتهى الأمر بمصرعه ومصرع الخلافة الراشدة"[1]".

* * *

١ - د. عبد العزيز كامل، الإسلام والعروبة في عالم متغير، كتاب العربي ١٥ يناير ١٩٨٩ ص٩٧.

من يدير عجلة التاريخ إلى الوراء؟

لقد هرب العدل أمام تعطش الانسان إلى الرغبة في طلب الحكم وبريق الحياة الزائف، لقد حدثت انحرافات عن الخط الراشد، وخرجت رؤوس العصبيات من جحورها، واكل الحكام واعوانهم من استنزاف اموال الناس وارواحهم، فتهاوت اركان من حصون الإسلام، وصال الصليبيون والمغول وجالوا خلال الديار، ثم انهارت الخلافة العباسية، وتحكَّم في أمور المسلمين من لا يحسن العربية، ومن لا يحسن الإسلام وتعاليم الإسلام.

انقلبت موزاين الأمة، ولم يعد الحكام يربطون بين قول الحق جل جلاله واعمالهم في الرعية:

"قال ابو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا. انهم كانوايستقرءون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل معا"[1]

ولا يمكن غض الطرف عن انحدار الإسلام ومن حالوا دون ازدهار الأمة وحضارتها دون التصدي لمن اعتمرت رؤوسهم بالعمائم وهي تغص بالخواء الديني والخرافي:

"فقد ظهر بين المسلمين أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه وخلطوا باصوله ما ليس منها، فانتشرت فيهم قواعد الجبر وضربت في الأذهان حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى امسكت بعنانها عن الأعمال، هذا إلى ما ادخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما احدثه السوفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر حقائق، وما وضعه كذبة النقل من

---

١ - مقدمة تفسير بن كثير.

الاحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع ﷺ "[1]".

ويكاد البحاثة يجمعون على ان الأفات التي الحقت الضرر بالأمة الإسلامية كانت بسبب الجنوح والايغال في الأخذ بمظاهر الحياة الدنيا، وتأثر قادة الفكر بالثقافات التي نقلوها عن الاغريق والرومان في ظل ظروف ابتعد فيها الحاكم عن مسار الإسلام العادل الذي اتبع نهجه الخلافاء الراشدون، ثم تصاعدت حالة التناقض والأخذ بأحكام الشرعية بدءً من نشوب الصراع الفئوي في الدولة العباسية إلى دعوة عبد الله بن سبأ الهادمة إلى محاولات تخريب البرمكية في ظل دولة العباس إلى ما اشاعته ثقافة الفرس في المسلمين من دعاوي التحلل الأخلاقي والعفن العقلي، مع شيوع انتشار اساليب الرياء والنفاق والخداع في اعمال رجال الدولة وبين عمالها، وبين عمالها والعامة إلى جانب الترويج لمذاهب موجهة ضد الدين الإسلامي في الاساس تحت غطاء شعاره: "حرية التعبير وفتح ابواب الاجتهاد"

الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بان الذي يجري على الساحة العربية والإسلامية - اليوم - من فقهية وفكرية لم يختلف ضمنيا الا في قليل من التفاصيل عن هياكل الافكار القديمة واصولها:

"الراوندية، والمقنعة، والخزمية، والبابكية، والأقشين، وعمل بن ديصان، ثم انتعاش المزدوكية، والمانوية، ثم القرامطة، ليأتي بعدها التتار إلى آخر هذه المواكب من القوى والمذاهب التي تحمل العداء والكراهية ضد الإسلام"[2]"

ومن بطون هذه الأفكار صاغت تلك الفرق الهتها وتوهمت كل جماعة أنها صاحبة الفرقة الرائدة، وتجاسر الانسان، وبدلا من أن يفكر بانه صاحب عقيدة أصبح يتطاول ويدعى انه اصبح قادرا على صنع آلهة من خزف وطين، وفيهم

---

١ - الإمام محمد عبده: الاضطهاد في النصرانية والإسلام، الأعمال الكاملة ج ٣ ص٣٢٥.

٢ - صابر عبد المنعم طعيمة: الإسلام والثورة الاجتماعية، ط أولى سنة ١٩٧٠ - الناشر مكتبة القاهرة الحديثة.

من ساروا علىالطريقة الميتافيزيقية غير المسايرة للزمان حيث تتقهر الروح إلى بدائية التفكير في العصور الأولى، وفي هؤلاء ماديون ممن كانوا يهتمون بتطبيق اعمال العقل على الواقع والمشاهدة دون النظرفي فتح ابواب مجالات الروح الانسانية.

ولقد صدق رسول الله ﷺ حين وجه حديثه للمسلمين:

"لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم، قلنا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟.. قال: فمن"[1]

ومن الملاحظ أن الذين يتصدون لهذه الانحرافات العقلية تنبري لهم فئة متسائلة في تشكك: كيف يدعي المسلمون بأن الإسلام يحفز علىاعمال العقل{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣]، و{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥] و{قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [يونس: ١٦] ثم بعد ذلك يحاصر الاجتهاد بنص المصطفى ﷺ: ما أنا عليه اليوم وأصحابي".

يجيب على ذلك رسول الله ﷺ باسلوب واضح الدلالة وهويري حال الامة في انقسامها إلى فرق شتى: "إني اخاف على امتي من اثنتين: القرآن واللبن، أما اللبن، فيبتغون الريف ويتبعون الشهوات، ويتركون الصلوات، واما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين"[2]

ولكأن الماضي يعيد صياغة الحاضر بأسلوب العصر، وهلل الاعلام الغربي لمن اجترؤا علىالإسلام واستعملوا الأحاديث النبوية الشريفة في غير مظانها، وكتبوا "آيات شيطانية" تذدري القرآن الكريم، وسددوا سهام الكراهية

---

١ - رواه أحمد والبخاري. كتاب: أحاديث الأنبياء.

١ - رواه أحمد..

لكل من يمت للآسلام بصلة، فكانوا مثل فروع شجرة تمتد جذورها إلى عصر التأويل الأول، حيث برز دور التفكير العقلاني في حياة الأشاعرة والمعتزلة ومن كانوا يعظمون العقل ويعهدون اليه بالدور الرئيسي في بنية الشرع والمجتمع، ويقولون ان العقل يقتضي التسوية فى الحكم بين المتماثلات، والتفرقة فيه بين المختلفات، ولو اضطرد الأمر كذلك في الشريعة كان القياس أمرا دعوا اليه العقل.

في مواجهة هذه الأفكار ظهر اجتهاد مغاير أفصح عنه ابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ حيث اعلن في روضة القياس الإكتفاء بالقرآن والسنة، ويرى ان من قال بالقياس في الشريعة فقد تعدى، ولا أحسب أن أحدا من المسلمين اخذ موقفا مضادا من التآويل، فتآويل المتشابهات من الآيات القرآنية يعني التفسير، كما أن التأويل عند الصحابة والتابعين يعني التفسير والتدبر، ومن هنا كانت دعوة الرسول ﷺ لابن عباس: «**اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل**» بمعنى أن التفقه في الدين يأتي قبل الدخول في مجالي التأويل والتفسير.

إضافة إلى ما يقدمه للآسلام من اساءة من ليسوا فقهاء ومن ساعدتهم على ذلك العديد من الظروف، منها أن الإسلام انبعث عن تشكيلة واسعة من التيارات الفكرية والثقافية، تراوحت بين الأكثر محافظة، والأكثر تقدمية، ومن الأشد عقائدية إلى الأشد انفتاحا.

"إن من كرم الله - تعالى - أن علم الانسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به ابو البرية آدم على الملآئكة، والعلم تارة يكون في الأذهان وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، وفي الأثر قيدوا العلم بالكتابة، وفيه ايضا من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم"[1]"

١ - تفسير ابن كثير ج١/ ٥٢٨.

ومن صفات المؤمنين أنهم الذين يفكرون ويعقلون:{كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الروم: ٢٨]، أما عن غفلة القلب وغربة العقل فهما لا يبرران موقف الانسان المتردي:

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠]، اما الذين يؤمنون ويعلمون فانهم العلماء الذين يخشاهم الله تقديرا للعلوم التي يفيدون بها البشرية:{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨]، وهو الله القادر العاطف على مخلوقاته الداعين:{وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]، كما حث الله عباده على توسيع رقعة مدركاتهم الحسية والبصرية:{فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [الأنعام: ١٠٤].

وتأصيلا فان نظام الشورى في الإسلام يعتبر مصدرا تشريعيا - في الإسلام - قبل صدور القوانين المنظمة للديموقراطيات في العصر الحديث.

والشوري بالاساس اجتهاد مجاله الأمور الدنيوية وما لا نص فيه، وكانت بيعة الصحابة للخلفاء الراشدين نموذجا لإعمال مبدأ الشورى.

وهناك تفسير للنبي ﷺ سبق عصره وتجاوز حدود الديموقراطيات الحالية، فعندما سأل على بن ابي طالب كرم الله وجهه عن "الأمر ينزل بنا بعدك ولم ينزل فيه قرآن ولم يسمع فيه منك شئ" أجاب صلوات الله عليه وسلم: "أجمعوا العالمين واجعلوه شورى بينكم ولا تقضوه برأى واحد"

وهذا صريح في وجوب الشورى ووجوب الإلتزام بها. فهل إذا أخذ المسلم اليوم مبدأ الشورى يتهم بانه يدير عجلة المستقبل إلى الوراء؟

* * *

الإسلام

التوسط والاعتدال

قيل في صفة النبي ﷺ: «أنه كان من أوسط قومه»، أى خيارهم، تصف الفاضل النسب بأنه أوسط قومه"[1]".

وجاء في القرآن الكريم:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣].

"وحول معنى الآية "أمة وسطا" ذكر القرطبي في تفسيره: الوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها، وروى الترمذي، عن ابن سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله تعالى:{وكذلك جعلناكم أمة وسطا}، قال: عدلا، وفي التنزيل قال: أوسطهم أى أعدلهم.. وسط الوادي: خير موضع فيه، واكثره كلأ وماء، ولما كان الوسط مجافيا للغلو والتقصير كان محمودا.. وفلان من أوسط قومه.. أى من خيارهم، واهل الحسب منهم"[2]"

نخلص من القول تأسيسا على ما تقدم أن التوسط والاعتدال من أبرز السمات الرئيسية للاسلام، وبالعودة لمصدر الإسلام وهو القرآن الكريم والسنة النبوية نكون قد خلصنا النية في معالجة شؤون المسلمين أينما كانوا في أي عصر من العصور مع مراعاة النزوع الفطري إلى السمو والرقي بدءا بحرية الاعتقاد وانتهاء بحرية التعبير، وذلك على اعتبار ان الانسان ليس مجرد كائن في دنيا الله، بل هو مخلوق له طبيعة تناسب رسالته في الحياة خاصة إذا كان على هدى من القرآن

---

١ - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، بدون تاريخ ص٨٣٣.

٢ - القرطبي ج٢، ص١٥٢.

يعصـمه مـن السـقوط فـي هـوى الـذات وشـهوة العقـل الخاضـع لاسـتبداد الجدل والاختلاف.

إن الانسـان المسـلم يحظـى بمزيـة فريـدة هـي العقـل والوجـدان، فـإذا صـادفه أمـر لـم يقتنـع العقـل بـه فانـه يحيلـه إلـى قلبـه فـي عمليـة اسـتفتاء، وهـذا اسـلوب آخـر مـن ابـواب الاجتهـاد وصـولا ليقـين يضـع الضـوابط والحدود حماية من الأهواء والنوازع التي تضر.

وإذا حـدث وظهـر هنـاك خـلاف، وهـذا أمـر متوقـع، فانـه بجهـود واجتهـادات العلمـاء الثقـاة يمكـن معالجـة المشـاكل التـي تعتـرض طريـق المسـلمين، علمـا بـأن نشـأة الاخـتلاف فـي الأحكـام الفقهيـة ليسـت بنـت السـاعة، ولا وليـدة اليـوم، بـل تعـود إلـى نشـأة الاجتهـاد فـي اطوارهـا الأولـى بعـد وفـاة النبـي ﷺ وانقطـاع الـوحي، وتـوزع الصـحابة رضـوان الله علـيهم في الأمصار.

ويرجع الاختلاف في الأحكام الشرعية إلى اصلين هما:

- احتمال النصوص الشرعية لأكثر من معني.
- اختلاف المدارك والأفهام.

قـد يكـون فـي ذلـك مـا يثيـر عواصـف الريـاح ويفسـح المجـال أمـام نشـوب صـراع جـدلي، وبالتـالي قـد يفضـي إلـى صـراعات فئويـة أو جبهويـة لا تصـنع الايـلاف بـل تفضـي إلـى سـوء الظـن وسـيادة أسـلوب التنـاقض المنـافي لسـماحة الإسـلام، وفـي القـرآن الكـريم ان الله تعـالى يريـد بالنـاس اليسـر ولا يريـد بهـم العسـر، وفـي هـذا الصـدد أرشـد النبـي ﷺ المؤمنين إلى ضرورة تناول الحياة بيسر حتى لا يغلبوا على أمرهم:

"إن الـدين يسـر، ولا يشـاد الـدين أحـد الا غلبـه، فسـدوا وقـاربوا

وابشروا "[1]"

وبعيدا عن العنت والإستبداد بالرأي تناط الأمور في الكثير من الحياة - في الإسلام - لا على ما يفرزه العقل من نتائج واختبارات معملية، وانما على تقوى الله التي وضعها في كل قلب مسلم:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

لم يقل سبحانه وتعالى أعلمكم لأن الانسان قد يكون حاصلا على أعلى درجات الكفاءة والعلم لكنه لا يفيد الناس بقلمه بل يصيب حياتهم بالوبال والدمار، أما من كان على تقوى وصلاح فان كل مايصدر منه يكون فيه اثمار وفلاح لخير البشرية.

وازاء ما يشيعه المرجفون بأن العقل الايماني وهنت قواه المنطقية امام تقدم العلوم فلعل من طالع تلك المراحل التي اخذ فيها المسلمون أمور دينهم بعين العقل والاجتهاد والتبصر سيرى كيف كانت مواكبتهم الحياة لها ابلغ الاثر، خاصة عندما تناولوا في بحوثهم مشاكل العلوم الطبيعية.

إن إماما بارا فاضلا مثل الشيخ محمد عبده لم تبعده دراسة الفقه الإسلامي عن محاولة الريادة في مختلف العلوم إلى درجة وجد في القرآن الكريم موضعا لنظريات "تنازع البقاء" و"الانتخاب الطبيعي" وهو بصدد التدليل على صحة قوله استند إلى آيات مثل:{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢] و:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]،

---

١ - أخرجه البخاري.

يوضـح الشـيخ محمـد عبـده موقفـه مـن العلـم الحـديث بـأن العلـم الـذي كـان يقصـده لـيس هـو العلـم الطبيعـي علـى وجـه التحديـد، ولكـن مـا يسـمى الآن بـالعلوم الاجتماعيـة، ولكـي يحقـق ذلـك حـاول العمـل علـى احـداث تطـوير فـي رؤيتنـا التقليديـة لإرادة الله المطلقـة بغيـة الوصـول إلـى مفهمـوم يفسـر القـوانين التـي تحكـم الطبيعـة وتجعلهـا تسـير وفـق نظـام دقيـق، واسـتطاع بذلك أن يضفي اعتبارات السببية على الوضع الالهي لنظام الكون.

ومـن تجربـة الامـام محمـد عبـده مـع القـوانين التـي تحكـم طبيعـة الأشـياء تعلمنـا كيـف تصـبح الانطلاقـة مـن حقيقـة إلـى حقيقـة أخـرى تفـرق بـين الفكـر والتفكيـر فهمـا مـع اقتسـامهما أمـرا واحـدا هـو مـادة الفـاء والكـاف والـراء إلا أن بينهمـا فروقـا كثيـرة، فـالتفكير عمليـة عقليـة ذهنيـة صـامتة يحـس بـه صـاحبه بعـد الله سـبحانه وتعـالى، امـا الفكـر فهـو حصـيلة ذلـك التفكيـر، إذا دونـه صـاحبه أو اسـمع بـه غيـره، غيـر ان التفكيـر ذاتـه سـابق في الوجود عن الفكر ولولاه ما كان الفكر.

مـن اجـل ذلـك فقد ثبـت أن تـاريخ الفكـر الإسـلامي يمتـاز بانفتـاح الآفـاق وتوظيف التراث بوجوه التعددية والتسامح الديني.

فبحلـول الإسـلام تخلـص العـرب مـن النزعـة الماديـة الغارقـة فـي الاباحيـة الحيوانيـة.. لقـد كـانوا قبـل الإسـلام وثنيـين وملاحـدة، يعتقـد معظمهـم أن المكـان لا نهايـة لـه ولا حـدود والزمـان سـرمدي لا أول لـه ولا آخـر والأرض مثـل حبـة رمـل فـي المحـيط الكـوني الـذي لا شـواطئ لـه.

إن مطالعة تاريخ الأمة العربية يؤكد أن سبيل التطور والرقي لن يتحقق الا بالمثل الأعلى الإسلامي.. وهو اقرب إلى طبيعة الانسان من مثل أعلى نابع من الإسلام وهو دين الفطرة.

"يدهش عقل الناظر في احوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في اقل من ثلاثين سنة ثم يتناول بقية الأمم ما بين المحيط العربي وجدار الصين في اقل من قرن واحد، وهو امر لم يعهد في تاريخ الاديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب"[1]"

لقد شاع مفهوم "الدين" في الإسلام حيث جمع بين الشمول الزماني والمكاني والموضوعي الذي يمثله قول الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ:{وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

إن السؤال عن الايمان قائم، ولكل عصر ان يسأل ذلك السؤال: من خلق العالم؟.. في عصرنا إذا أجاب العلم عن هذا السؤال بنعم فما عمل الدين إذن؟.. هل يجوز ان نتقبل هذا التعبير ونفكر في أن يتوحد رجل العلم برجل الدين. تماما مثل كهنة آمون في عهد الفراعنة؟.

* * *

١ - الشيخ محمد عبده: رسالة التوحيد.

الأصوليون في ميزان العلم

كان الكهنة في مصر بيدهم - وحدهم - خزائن العلوم وأسرار المعارف، إلى جانب المعرفة بوسائل التحنيط، وعلى قدر حنكتهم والمامهم بشؤون السياسة وإدارة دفة الحياة، فقد استطاعوا بإيمان أن يجسدوا مظاهر الخلود ويحفرون صوره على الجداريات، وبفيض شعري من عصارة روح الله انعم عليهم بأجنحة يسرت لهم سبل التحليق ورصد ما في فراديس الخلود من جمال.

والكاهن هو الحصيف الحكيم، والحكيم هو من كان يشتغل بالتطبيب واجراء عمليات الجراحة، وكانت درايته واسعة بالمكونات العضوية لعناصر الأدوية، إلى جانب القدرة على الإلمام بالسياسة وتحريك أجنحتها حتى خرج من الكهنة من اصبحوا فراعين وجلسوا على عرش البلاد، يديرون شؤونها من منطلق ثيوقراطي عقيدي، وكان من المستحيل أن تعثر على حكيم من هؤلاء دون ان تتوفر فيه موهبة الشعر، والاشتغال بالسحر.

وبعيدا عن المقارنة بحكماء العصر الراهن، فإن الحقيقة - أحيانا - تستوجب الاقتراب من المتماثلات والمشتبهات التي من بينها طلائع القوى الإسلامية، أو من يطلق عليهم نشطاء الحركات الأصولية حيث نجد معظم قياداتهم تخرجوا في الكليات العلمية.. مهندسون.. جيولوجيون.. اطباء.. صيادلة، وفيهم من درسوا علوم الفضاء والذرة، ومن برعوا في العلوم الانسانية وكتبوا القصص القصيرة والنقد الأدبي مثل الراحل سيد قطب.

من قاعدة الدين، مضى هؤلاء على يقين بأنه يؤسس على اكتافهم البعث او الإحياء الإسلامي.. القرآن الكريم رائدهم، والسنة المحمدية هى طوق النجاة من الغرق في الحياة.

انطلاقا من هذه الثوابت يؤكدون دور الإسلام وأهميته المتزايدة في حل

المتناقضات الاجتماعية والتوجيه الروحي والعقلي للبشر.

ومع المفارقة نقول: أنه إذا كان الماركسيون يعتقدون بأنهم نجحوا في تفسير تكوين الرأسمالية واصبحوا يبرهنون على ان المفهوم المادي للتاريخ لا يكون مجرد افتراض علمي "بل مذهب مبرهن بعلمية ويصير استخدامه مشروعا لدراسة المجتمعات الأخرى" فان الإسلاميين يسوقون للرد على هؤلاء صورا من عهد خلافة عمر بن الخطاب وصورا من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز.

ومن ثم يتجسد المشروع الاقتصادي الإسلامي حيث يقدم منهجا تقدميا وسباقا في حسم قضية الثروة والتطور الاقتصادي، ويعلمنا الإسلام انه ما دام خلق السموات والأرض لله وحده، وانه جلَّ شأنه بيده مقاليد السموات والأرض بما فيها من ثروات، فلا داعي مطلقا أن يحتكر أى مخلوق فانٍ أى شئ فيها أو ينسبه لنفسه:**{قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [المؤمنون: ٨٤].

الأمر الذي جعل الأصوليين يقدرون أن قيمة الفرد في الإسلام من حيث هو انسان لا تقدر بمال أو جاه، كما لا يأخذ الإسلام بقرابة الدم أو يعتبرها اساسا لوحدة الانسانية، فقرابة الدم اصلها مادي مرتبط بالأرض وما هو أدنى، بينما وجهة نظر الإسلام روحية ومرتبطة في آن بمطالب الانسان الحياتية مع المحافظة على صفاء الفطرة وشفافية الروح حتى يكون على استعداد دائم لمناهضة النفس وتحريرها من أسر الروابط المادية.

ويلاحظ أنه منذ الأمبراطورية الرومانية لم يوجد لاهوتي غربي أو كاتب من هناك يعرف عن وحدة الانسانية أكثر من كونها فكرة عامة، اما الإسلام فان الأمر فيه على خلاف هذا، اذ انه لم ينظر إلى وحدة الانسانية على انها فكرة فلسفية، أو حلم من صور اليوتوبيا، بل بوصفه حركة اجتماعية، يهدف إلى جعل هذه الفكرة عاملا حيا في الحياة اليومية للمسلمين.

من تلك الزوايا يؤكد الأصوليون أن الإسلام بوصفه دستورا ينظم العلائق بين الانسان وربه، وبين الانسان والمجتمع فهو الإداة المثلى والعملية لجعل المثل العليا تصير حقائق ملموسة في حياة البشر العقلية والوجدانية والاجتماعية، بيد أن ذلك يتطلب الطاعة والإخلاص لله - سبحانه وتعالي - قبل أي شئ آخر، وما دام الانسان يؤمن بأن الذات الإلهية هى مصدر الحياة بشقيها الروحي والمادي، فإن اخلاصه لله إنما يكون بمثابة الاخلاص لفطرتة وطبيعته الخيّرة.

هذه الطهارة وذلك السمو جعلت الغرب يرتعد فرقا من الإسلام القادم باصرار ونقاء السريرة، وبعض الغربيين يعلنون أن الغرب ليس لديه مشاكل مع الإسلام، ولكن مع المتشددين الأصوليين.

الواقع، أن العلاقات بين الإسلام والمسيحية كانت دائما تعتريها العواصف المفجعة، في القرن الخامس عشر استعاد المسيحيون إيبيريا واحتلوا غرناطة عام ١٤٩٢م.

ويرى هنتنغتون أن اسباب هذا النمط من الصراع يكمن ليس في ظاهرة التحولات المسيحية في القرن الثاني عشر أو أصولية القرن العشرين الإسلامية:

"انها تنبع من طبيعة الدينين والحضارات المؤسسة على مبادئهما، الصراع كان من جهة، نتاج خلافات، وخاصة مفهوم المسلم بأن الإسلام منهج الحياة يوحد الدين والسياسة ضد المفهوم الغربي المسيحي الذي يفصل الدين عن السياسة، ولكن الصراع ايضا ينشأ من التشابه بينهما، كل منهما يؤمن بالله الواحد وفي ذلك يختلفان عن الأديان الأخرى التي تشرك بالله، كل منهما يرى العالم بطريقة مزدوجةنحن وهم، كل منهما عالميا يدعي أنه الإيمان الحقيقي، والذي يجب أن تعتنقه كل الانسانية، كل منهما صاحب رسالة دينية يعتقد بأن

معتقديه ملتزمين بتحويل غير المؤمنين إلى ذلك الايمان الحقيقي الواحد، الإسلام من بدايته انتشر بحد السيف وعندما سنحت الفرصة للمسيحية فعلت كذلك، تماثل مفهوم: "الجهاد"، "والصليب" لا يجعل الدينين متشابهين فقط ولكن تميزهما عن الاديان الكبرى الأخرى، الإسلام والمسيحية، واليهودية لديهم وجهة نظر غائية للتاريخ تعكس وجهة النظر الجامدة والدائرية للتاريخ التي تبرز في بعض الحضارات الأخرى"[1]"

ومن المعروف أن اهتمام الغرب بالإسلام ولد في فترة مبكرة منذ أيام الدولة البيزنطية فيما يعرف بالمحاولات اللآهوتية بين أصحاب العقائد المختلفة خاصة الإسلام والمسيحية، وهى محاولات كانت تتوخى في معظمها حماية الذات عن طريق تشويه سمعة الآخر، ومحاباته، وقد اطلقت الأضاليل والحكايات المسفة ضد الإسلام وحاول مؤلفوها سبكها في قوالب شعبية حتى يسهل تداولها، ومن شاء الاطلاع على المزيد من هذه الحكايات فيمكنه الحصول عليها من ادبيات الغرب اثناء وعقب الحروب الصليبية، ومع فتح القسطنطينية. ثم اتسعت دوائر الاهتمام بالإسلام بعد ان تمت اول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللآتينية فيما يعرف بترجمة "يركلوني" في القرن الثاني عشر:

"وقد نشرت هذه الترجمة بعد اختراع الطباعة لأول مرة في بازل ١٥٤٣ وترجمت إلى الايطالية ونشرت في فينيسيا عام ١٥٤٧) وتوالت طباعتها بعد ذلك، وقد امتلأت هذه الترجمة - متأثرة بالتراث السابق لها وبمناخ العداء المنتشر وقتذاك - بمجموعة من الأوهام والأساطير والأخطاء المتداولة منذ ايام يوحنا الدمشقي حوالي ٦٧٥ - ٧٤٩)، ولانها كانت المصدر الوحيد لمعرفة القرآن في العالم الغربي، فقد ساهمت بدور اساسي في تشكيل صورة مشوهة

١ - المرجع: صموئيل هنتغتون صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي نقلة إلى العربية د. مالك عبيد أبو شهيوة د. محمود محمد خلف. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طبعة أولي ١٩٩٩ ص٣٧٢ و٢٧٣.

للإسـلام، اسـتمرت لفتـرة طويلـة، خاصـة انهـا ظلـت المصـدر الأساسـي، بـل والوحيد الذي اعتمدت عليه الترجمات الأوربية والترجمات اللآتينية حتى القرن الثامن عشر"[1]"

وإذا أعدنا قراءة أوراق القرن التاسع عشر سنرى مدي اهتمام الغربيين بالقرآن الكريم إلى درجة أن الدراسات القرآنية من المعالم البارزة للإستشراق الألماني، هناك ظهر اسمان كان لهما شأن كبير في هذا المجال هما: هنريش فلايشر (١٨٠١ - ١٨٧٠) الذي اهتم بنشر تفسير البضاوي خلال الفترة من ١٨٤٦ - ١٨٤٩) و(جوستاف فلوجل١٨٠٣ - ١٨٧٠م) ثم قام بتصنيف "معجم ألفاظ القرآن الكريم" وضمنه بعض الشروح.

ويعتبر المستشرق الألماني الكبير (تيدور تولدكه ١٨٣٦ - ١٩٣٠) حلقة الوصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين في ميدان الدراسات القرآنية، ومن اشهر الترجمات التي مضت إلى افاق اكثر عقلانية وتسامحا وأقل حدة في الأخطاء ترجمة ساموبل فريد ريش جنتر) ثم ترجمة (أولمان).

وشهد القرن العشرين أكثر من ترجمة للقرآن جدية وكاملة عن العربية مباشرة، منها ترجمة (تيودور جرينجول ١٩٠١) و(ماكس هيننج)، وقدم (جاك بيرك المستشرق الفرنسي) ترجمة القرآن باعتباره النص المؤسس للحضارة الإسلامية، وقد انفق في إعداده خمسة عشر عاما من العمل المتصل حتى استطاع أن يترجم معانيه إلى الفرنسية.

ويختلف الأمر نسبيا بين ترجمة واخرى، وقد اخذت بعض الترجمات في الاعتبار رؤية النص ونقله من سياق حضاري الي سياق حضاري مختلف الأمر الذي يحتم نقل النص إلى ايقاع اللغة المترجم اليها ليوصل نفس الدلالات

---

١ - المرجع. شفيق العمروسي: ترجمة معاني القرآني إلى الألمانية.. من سوء الفهم إلى الموضوعية. جريدة أخبار الأدب ١٣يوليو ١٩٩٧.

التي كانت لـه في اللغة الأصلية، وكان جاك بيرك صافي الذهن والطوية حين افصح عن منهجة في النص القرآني:

"سأقاربه بأحسن يتصل بنص نحاول ان نستقبله في ذواتنا، وسيكون لك بالتماثل معه، الا انه سيكون صادقا وملتزما، وسأتبع بهذا الصدد اجراء لا يشترك في شئ على كل حال مع الحلقة المتعجرفة التي يبسطها بهذا الخصوص كثير من المختصين"[1]

وكلمة حق اخيرة تقال في حق بيرك، أنه اخلص لمنهجه، وكان حذرا بالفعل مع عمق التأمل والابتعاد عن اللسانيات الحديثة، فهى ليست اختصاصه، لكن ثقافته الهائلة والمدخل اللغوي جعلنا في غير حاجة إلى لوغاريتمات الحداثة التي اغنتنا عنها معايشته الطويلة وفهمه العميق للنص القرآني.

فهل اهتم احد ممن يحملون اليوم على القرآن في الغرب بترجمة جاك بيرك الصحيحة للقرآن أو اعملوا فيها العقل؟

لاشك انهم قرأوا واستوعبوا، ولكن من يحرفون أن النزعة الانسانية في الإسلام تتمحور حول تصور عام لكافة المهلوقات وللانسان بوجه خاص على اعتباره كفاعل مركزي، أو كنائب للفاعل الأصلي يقوم مقامه كعلة ثانية من موقع الخلافة السامية لله تعالي في الكون وبين مخلوقاته:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠].

وفي هذا الصدد يقرر "سيد قطب١٩٠٦ - ١٩٦٦" أن الارادة العليا سلمت مقاليد الانسان:

"ووكلت اليه ابراز مشيئة الخالق في الابداع والتكوين والتركيب.. ومنحته الملكات والقدرات التي يحتاجها لأداء هذه المهمة بذلك تمت الوحدة والتنسيق

---

١ - المرجع. جاك بيرك: القرآن وعلم القراءة، الناشر مركز الإنماء العربي - حلب.

بين نواميس الكون وبين القوانين والأحكام المفروضة على الانسان، وبذلك بلغ الانسان منزلة رفيعة في نظام الكون في مجموعه"[1]"

ويرى زعيم (جماعة اسلامي) في الهند وباكستان "أبي الأعلى المودودي ١٩٠٣ - ١٩٧٩":

"أن الإسلام الذي يقوم بهذه الوظيفة لا يبقى فحسب خاضعا للقانون أو الشرع الإلهي، ولكن هذا القانون، ثابت ثبوتا مطبقا وصادق صدقا أبديا".

هذا الإسلام يرفع إنسانية من يؤمن بالقرآن، غير أنهم في الغرب يعتبرون "النزعة الإنسانية" هى جزء خالص من مكوناتهم وقد احاطوها بسياج ضربوه حول دنياهم، وهى ظاهرة - يقرون - أنها خاصة لم تعرفها الحضارة الشرقية، نظرا - كما يزعمون - التناقض بين روح الشرق وبين العقلية الجدلية: "أنا اشك، إذا انا موجود"

وعلى طريق التجهيل والتناسي آثروا ان يغضوا الطرف عن النموذج الحضاري الإسلامي حين كان يمثل تيارا فكريا في أوربا، وصف بتيار النزعة العربية، وقد احتضنت دفتيه رواد الحركة الاحيائية في اوربا بالتفويض العصر الوسيط المتمثل في الكنيسة في الفكر المدرسي القديم.

ثم ترتفع نبرة العداء في القرن الواحد والعشرين متهمة القرآن بأنه يحض على الكراهية، وبعبارات ذميمة تثير المسلم وتدفعه للسخط والاحتقان.

إنه لا يمكن الزعم بعدم وجود تمايز ما بين الشعوب التي انتشر بها الإسلام، والقول بعدم وجود تمايز مثلا بين العروبة والإسلام قولا يحمل في طياته نكرانا لمشاركة الآخرين في الحضارة.

وللأصولية الإسلامية جواب صريح على اشكال الادعاء والزيف

---

١ - المرجع. سيد قطب (في ظلال القرآن) ط ثانية، بدون تاريخ، القاهرة ج١ ص٢٩.

والعداءالتي اغرق بها الغرب المسيحي المتحالف مع الصهيونية العالمية ضد العرب والمسلمين، وعبر القراءة المتجردة لأحوال الواقع صرح الأصوليون بأنهم - وحدهم - يملكون الحقيقة، وفي مراحل سابقة كانوا على قناعة بأن مواقفهم تشكل الحد الفاصل بين الحقيقة والكذب، بين الإيمان والكفر بالله، وأن كل ما يدينون به ويعملون على نشر رسالته لا يحتمل الزج به على طاولات الحوار مع من لا يقين لهم ولا يؤمنون، وبالتالي - أمام عماء الآخر - كانوا لا يعترفون بامكانية وجود الحقيقة او جزء منها لدى غيرهم.

وعندما بدأت القاعدة الأصولية يتسع حجمها وتتضاعف اعداد الناشطين في حركاتها اتفق من لا يستندون على قوى الشعب من الليبراليين والعلمانيين في وجهة النظر القائلة بان الحركات الأصولية تكسب قوتها من ضعف الآخرين وبسبب استرخائهم السياسي، ويطنطنون بانه عندما تكون مؤسسات المجتمع المدني من قانون وقضاء وصحافة واحزاب موجودة وليست حبرا على ورق، فان قوى الأصولية سوف تنكمش ولا تستطيع الانتشار بين جنبات الدولة وفي اعماق الريف والمدن.

ويبدو ان هؤلاء لايدركون أن الدولة المدنية والعسكرية في ظل أنظمة الحكم للعالم الثالث لا تهتم الا بتشديد قبضتها على اعناق المواطنين، ومن العته أن يحلم انسان بأن مثل هذه الأنظمة سوف تسمح بوجود قوى اجتماعية تنافسها على مقاعد السلطة.

لذلك. يرى الأوليون ان الدولة الإسلامية تقوم على أسس ديموقراطية، ولأبي الأعلى المودودي وجهة نظر يفترض فيها أن النيابة عن الله لا ينهض بأمانتها فرد ولا دولة ولا طبقة، بل تتولاها الجماعة الإسلامية ويستطيع من ينوب عنها أن يؤدي هذه الامانة، وإذا فقد ثقة الجماعة، فلا بد ان يستقيل من مهمته.

ويفسر "علي شريعتي (الأمانة) على اعتبار ان افكاره ساهمت بشكل ملموس في التمهيد للثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٨ - ١٩٧٩:

"الأمانة هي حرية الارادة التي تميز الانسان عن سائر المخلوقات جميعا: في إمكان الانسان أن يختار بين أن يكون شبيها بالطين، أو بالإله. وبذلك لا يكون الانسان محتقرا عند الله، وانما هو شريكه وحبيبه. "[١]"

من هنا كان سمو الحضارة الإسلامية وبلوغها مرتبة فريدة امتازت بها عن غيرها من الحضارات، ولأسباب منها:

١- انها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في الحكم.

أنها انسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن وحده أعلن وحدة النوع الانساني رغم تنوع الأعراق والمنابت والأوطان في قول الله سبحانه وتعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** [الحجرات: ١٣].

٢- أنها لم تتخل عن مبادئ (الأخلاق)، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة، ففي شتى مواطن الحياة روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعا وتطبيقا ينعم الجميع بفضائلها.

٣- أنها تؤمن بالعلم في خدمة قضايا الإنسانية.

٤- من خصائص الحضارة الإسلامية التسامح، كما تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد، ولكنها كانت للأديان جميعا.

* * *

١ - المرجع. فريتس شتيبات (الإسلام شريكا) سلسلة عالم المعرفة - الكويت. ص١١٢.

من يخلط اللاهوتي بالسياسي بالحداثة؟

من تأثروا بغزوات الفكر الاستعماري.. من أعشت بصائرهم زيف تفوقه المادي، يعيبون على الإسلام والمسلمين أنهم عندما يناقشون هموم الانسان فمن قالب فكري يسميه الغربيون قبل القرن الثامن عشر اللاهوتي/السياسي، ويدعون أن عدم تقدمنا يعود إلى الربط بينهما في كل ما نذهب اليه.

ويراهن المتأثرون بالمنهجية الغربية على ان الأوربيين ومنذ القرن الثامن عشر على الأقل قد استبعدوا اللاهوتي عن السياسي، أو على الأقل باتوا يضعون اللاهوتي ضمن اطار يمنع عليه غزو النشاط السياسي للمواطنين.

وهذا القول فيه جنوح عن الواقع وافتئات على الحقيقة، اذ أن واقع الحال يؤكد أن الغربيين على عكس ما يدعون ويروج عنهم، وان كل اللاهوتيين سياسين ومعظم السياسين في الغرب لاهوتيين.

وسنتجاوز الآن الحديث عن حالة الرئيس جورج دبليو بوش اللاهوتية واستنباطه من بطون التراث الكهنوتي ما يوحي بأن مشروعه الاستعماري إنما جاء كتعبير حي، وأنه - كمسيحي مؤمن - لا يملك سوى الإستجابة لتلك المزاعم التي توسوس في أذنيه: (الرب قال لي...)، بل سنلقي الضوء على محاولات تجمع القوى في تجربة سعي لتحقيقها منذ سنوات قادة دول البلقان في شكل تحالف يوناني.. صربي.. بلغاري.. ارثوذكسي.. تعبيرا عن تلك المزاعم التي عبر عنها رئيس الوزراء اليوناني:

"إن الحروب البلقانية قد جلبت على السطح صدى الروابط الأرثوذكسية.. إنها رابطة كانت هادمة، ولكن مع التطورات في البلقان تأخذ نوعا مضمونا حقيقيًا في عالم غزير جدا، الشعوب تسعى إلى البحث عن هوية وأمان، الشعوب تبحث عن الجذور والروابط حتى تدافع عن نفسها ضد المجهولين".

لبثنا زمنا نفتش عن المجهولين.. من هم؟، حتى اماط زعيم المعارضة في صربيا اللثام إبان القيام بعمليات التطهير العرقي ضد المسلمين، قائلا بوضوح:

"إن الموقف في جنوب شرقي أوربا سوف يتطلب قريبا تكوين حلف بلقاني جديد من الدول الأرثوذكسية، بما في ذلك صربيا، وبلغاريا، واليونان، حتى يقاوم تجاوز الإسلام لحدوده".

الساسة في دول البلقان ينشطون - شأنهم في ذلك شأن الساسة الغربيين - في سبيل حشد مختلف القوى المسيحية لمقاومة الإسلام حتى لا يتجاوز حدوده، وقد سبقهم الرئيس بوش في اتخاذ موقف متقدم حيث راح يشن حروبا وقائية من القواعد العسكرية المنتشرة في العراق وأفغانستان والتي تقع على بعد عدة كيلو مترات من حدود الجمهورية الإيرانية الإسلامية.

فمن الذي استبق الأمور في العصر الراهن وربط السياسي باللاّهوتي؟.

غالبية المثقفين في الشرق تشبعوا بقراءة التراث الإسلامي على ضوء المنهجية الغربية، وقد ثبت ان معظم هذه الكتابات لم تكن صحيحة، واصبح الانسان عبدا ليس للاله الخالق الواحد، وانما لشياطين اللذة والجسد.

ويرى الإسلام أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الانسان نظريًّا بين الحق والباطل، ولا يجاهد لارتقاء الحق وازاحة الباطل، فإن الفضيلة كما يقول الإسلام تحيا إذا جاهد الانسان لبسط سلطانها على الأرض، وتموت إذا خذلها وتقاعس عن نصرتها، والتعتيم على فضائل الإسلام غاية يطلبها الغرب، حتى يصبح النموذج السائد منطلقا من سلفية غربية ذات بعد مادي.

فهل يقبل الشرق صاحب الحضارات الإنسانية أن يتحول إلى سوق دولية لا منتج ثقافي له فيها ولا منتج مادي؟.

هذا ما تريده الولايات المتحدة لنا، ومن المؤسف أن مساعدات العرب

والمسلمون لها يجعلها تقترب من تحقيق أهدافها فى تلوين عالمنا بصبغتها:

"ولكن ليس حتميا أن تسير جميع المجتمعات في الطريق التي سارت عليها المجتمعات الغربية أبدا، ولا تبدأ المشكلة الا عندما نعتقد أن هناك خطا واحدا للتاريخ يسير بالجماعات من العبودية إلى الحرية وإلى الديمقراطية والقومية، وتفرض على انفسنا خطط المسيرة الأوربية ذاتها فنفشل حتما، ليس فقط في الوصول اليها، ولكن ايضا في الوصول إلى اجماع قومي وإلى وحدة قومية من اى نوع كان.

ونحن نميل إلى الإعتقاد بأن التاريخ في كونيته يحمل التعدد والتفاوت والاختلاف، فمن المنطقي أن الأسباب إذا اختلفت اختلفت معها النتائج"[1]"

وما ليس فيه اختلاف أن التحولات المادية تأخذ من الطاقة الفكرية ما يساعدها على النمو، ويخلع عليها مظاهر وأشكال ذات لمعان وبريق وان جاء ذلك عبر الخطوط الثقافية المتباينة الا أن شيئا من ذلك لا يقوي على امحاء السمات الثابتة للحضارات، وما ينجم بينها من خلافات، بشكل يضيق ويتسع، حتى يصبح عنوانا ثابتا يتداوله بالبحث مختلف المهتمين في كل العصور.

هنا يجب علينا تحمل مسؤلية الاعتداد بثقافاتنا وتيسير نشرها على العالم حتى لا نقع تحت وطأة مشاعر الأفكار التي تريح رؤوسها من عناء البحث عن اسباب فشلنا وتحيل عجز همتنا إلى ازالة الفكر الإسلامي من افقنا الثقافي والفكري نتيجة الاجتياح الصهيوني وألامبريالي لبلادنا.

إننا مسؤولون ومتورطون معا في كل ما ألم بشعوب أمتنا من مصائب، ولم يجد الإسلاميون خلاصا لهذه الأمة وانتشالها من كبوتها إلا بالرجوع إلى الدين والنفخ في نفير اليقظة لعل أقواما يبعثون وينتصرون للحق والعدل.

---

١ - المرجع: د. برهان غليوم المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩ ص٨١.

" وأذكركم أن الخطاب الذي نسميه اسلاميا قد حل كخطاب معركة محل خطاب الثورة العربية الإشتراكية التي كانت مستوحاة من علمانية دنيوية وليس من وحي ديني، وبالنتيجة نوه هذا الخطاب بالإسلام كمنطلق سياسي وكمنطلق للثورة، وهذه المرة ضد الحكومات الوطنية داخل المجتمعات العربية وفي نفس الوقت ضد هيمنة خارجية مستمرة"[1]"

بالنسبة لواقع المجتمعات العربية، بالذات مصر، فمن المؤكد أن كل دولة كبيرة كانت أم صغيرة لها دوائر إنتماء، منها ما هو ثقافي وديني وجغرافي، وبطبيعة الحال تختلف درجة تأثير وفاعلية مثل هذه الدوائر من بلد لآخر، فالإسلام واللغة والعروبة يشكلون وجه مصر الحضاري، ويفجرون طاقاتها والدفع بها دوما صوب الريادة عبر خطوط ثقافية متجانسة.

غير أنه في السنوات الأخيرة ظهر على السطح تيارات فكرية وأديولوجية تسعى لربط مصر بتجمعات شرق أوسطية، تتعهدها أمريكا بالرعاية، لكي تحتل فيها اسرائيل دور القيادة والهيمنة.

ليس في ذلك شئ غير متوقع، إنما الذي كنا لا نتمناه قد حصل بأقلام حفنة وهبت حياتها لاقتلاع مصر من جذورها العربية، مدعية أن الارث العربي أقعدها عن النهوض بمسؤلياتها الجسام كأمة ذات حضارة عريقة.

هذه الخبرة ارتفعت حدتها في السنوات الأخيرة ولو أننا عدنا بالذاكرة إلى الثلاثينيات والاربعينيات من القرن الماضي فسنجد لها جذورا قد أينع صداها وتضاخم مع بداية الألفية الثالثة، ولسوف نتناول هذه الأصوات بالتفصيل لا حقا.

ويمكننا الآن رصد الأمور التي إجتمعت حولها أصوات القدامى والمحدثين. إذ اجتمعوا على أن مصر لو كانت اتجهت صوب حضارة وثقافة حوض البحر

---

١ - المرجع. د. محمد أركون (الأصولية السياسية والدينية والتفكير الإسلامي، دراسة منشورة في كتاب مركز الدرسات العربي - الأوربي. ط. ثانية. بيروت ١٩٩٧ص ٣٥٢.

الأبيض المتوسط لما أصابهاالوهن والتخلف.

صوت آخر ينبح زاعما أن الإرث العربي ليس شيئا أصيلا في حياة مصر والمصريين، ولا هوينسجم مع مصلحتهم، وأن الرابطة العربية فرضت على المصريين فرضا، فتحولت هذه الرابطة مع مرور الزمن إلى قيد على حرية مصر وحركة شعبها، وفي لزوجة وجهل يطالب احدهم - لمصلحة مصر - بالتخفيف من روابطها العربية.

لم يبق من مزيد لمستزيد سوى إشارة سريعة إلى ما يمكن أن نسميه بالمفهوم السيوسولوجي التاريخي الذي يرى أن الهوية القومية في انصهارها مع مختلف الأعراق تعني في أحسن الحالات، طرق تفكير وشعور وسلوك متماثله، مهيمنة نسبيا، وتتغير مع حركة التاريخ وتحولاتها الجذرية:

"فالهوية هي هوية نسبية وتاريخية، يحققها شعب ما عن طريق تفاعله الجدلي مع التاريخ ولا يرثها من تركيب نفسي.. عقلي أو (جوهر) متأصل فيه، إنها نتيجة استجابات يعانيها عن طريق المنشأة الاجتماعية، وليست ردًّا نظريا وغريزيا، انه مفهوم يرى أن خصوصيات أي شعب هى نتاج عوامل التاريخ الديناميكية، كالاحتكاك الثقافي والمؤسسات، والصراعات الاجتماعية والسياسية، والحروب والهجرات، والاختراعات، والازمات والقيم الثقافية، والتصورات الأديولوجية... الخ.

هذه العوامل، وليس (جوهريا، قطريا) وعوامل أخرى ثابتة كالجغرافيا (الغرائز)، و(الطبيعة الانسانية)، و(العرق) - هي التي تحدد الهوية القومية، وكذلك الثقافة أو الحضارة، وبما ان هذه العوامل هى عوامل ديناميكية متحولة عبر التاريخ، فان الهوية القومية تكون هى الآخرى متغيرة، ومتحولة، وهذا هو

المفهوم العلمي الوحيد الذي يمكن قبولـه"[1]".

أعتقد أن هذا الطرح فيه من الإجابة ما يقطع بالرد على جماعة التغريبيين، ومن يدعون أن الرابطة العربية فُرضت على المصريين فرضا وأنه لا خلاص لها - حتى تستعيد عافيتها - إما بالانسلاخ عن العروبة، والارتماء في أحضان الغرب، وهؤلاء قد يدعون إلى الاستقلال السياسي او إلى قدر من الاستقلال الاقتصادي، لكنهم يعادون "الاستقلال الحضاري" أى استقلال الهوية المتميزة عن هوية الغرب.

وفي مسألة ارتباط اللاهوتي بالسياسي يعلن العلمانيون الثوريون أنهم لا يقفون عند حدود المطالبة بالفصل بين الدين والدولة، وانما يريدون - على أسس فلسفية مادية ذات نزعة احادية - اقتلاع الدين والتدين من المجتمع بأسره، ومعنى هذا ان الخلاف بينهم وبين الإسلاميين هو خلاف في "الأصول" وليس في "الفروع".

كما أن الاستقلال الذي يروجون لـه في كتاباتهم هو في حقيقتة استقلال "الوطن - الاقليم، عن ماضيه وتراثه ومكوناته الإسلامية" وذلك لإلحاقه بالمركز الحضاري الغربي".

وهناك فريق آخر ظهر على سطح الحياة المصرية وليس لأحد منه تاريخ في الحياة العامة ولا في دنيا الثقافة، وإنما وجدوا الساحة تبسط أمامهم صفحات فارغة من الصحافة، فراحوا يزجون أوقات الفراغ في الكتابة. حيث كان ايقاع الحديث يرتفع حول مزاعم "الحداثة" وطلب التحديث".

وبدأ الحديث عن إسلام كان قبل العصر الراهن "دينا متسامحا"، لأنه لم يرفض الشواذ واللواطيين في فترة اعتبروها زاهرة في حياة الخلافة العباسية، ما يثير التقزز أن لهم في ذلك حججا كانوا يسوقونها في إغراء شيطاني.

---

١ - المرجع. نديم البيطار (الهوية القومية والوحدة العربية) مجلة الوحدة) المجلس القومي للثقافة العربية، باريس السنة الأولى العدد(٥) فبراير ١٩٨٥ ص١٥.

من ذلك - مثلا - ما يدللون به على عظمة تلك الأيام، إن عباقرة العرب في الإسلام كانوا ضد الدين، وإن الدين لا يقاوم الا بقوة الأفكار ثم يقف إلى جوار هؤلاء من ارتبطوا فكريا وأديولوجيا بسياسة الغرب.. ادعوا في آخر كتاباتهم أنه لم يعد ثمة تاريخ للإستشراق، وأن المجتمع العربي أصبح اليوم جزءاً من الغرب لأسباب كثيرة منها: أنه لم ينتج شيئا ذي نفع، بل ويعيش على الاستهلاك معتمدا على منتوجات الآخرين.

هذه الكتابات طرحت العديد من الأسئلة، وكان هناك تباين في الإجابة له علاقة ليس فقط بموقع الكاتب الذي يتناول هذه القضايا، وانما في رؤيته أيضا لصلة هذا التاريخ بالحاضر ومحاولة تحريف مساره في اتجاه عكسي استجابة لتلك الاطروحات العنصرية والاستعمارية التي عادت بشكل عملاق في نهاية القرن العشرين.

إن عودة سريعة إلى الوراء، لتتبع التراث الثقافي العنصري والمعادي للحضارة الإسلامية ضروري في هذا الصدد:

"فالانجليز مثلا يعتبرون العرب المسلمين "وباء موجع" وبأنهم عبارة عن مجرد كارثة، مثلهم كمثل الشعوب البربرية الأخرى، هذا الموقف قديم وطرح في القرن الثامن والتاسع الميلادي، كما ان الاعلام التراثي الغربي قدم "محمد" بصفته "كان ساحرا هدم الكنيسة في افريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصلات الجنسية"، كان ذلك في القرن الثاني عشر "[1]"

من يدينون بهذا الاتجاه ويروجون له على الصعيد المحلي يقولون: 'ن تراثا كبيرا للكتابة الأيروسية "الجنسية" العربية لا يزال تفرض عليه القيود، بل ويعد من

---

١ - راجع تراث الإسلام - القسم الأول تصنيف شاخت وبوزوت، ص٢٩ - ٣٤ - ٤٦ ترجمة د. محمد زهير السمهوري - الكويت - سلسلة عالم المعرفة ١٩٧٨، ولمزيد المعرفة يمكن مراجعة القسم الثاني والثالث من عالم المعرفة.

المحظورات، فينسحب من الحياة ليباشر حق الاستمتاع باللذة في كهوف سرية، قد تقع أماكنها وسط البلد أو على امتداد الساحل الشمالي بين عرب واجانب.

ثم يحملون على الأعراف والتعاليم الدينية باعتبارها أداة كبت، وانها تأخذ موقفا عدائيا من الحريات الشخصية.

لذلك - كما يزعمون - هبطت المبادرات الفردية والابتكارات التي من شأنها أن ترتقى بالمجتمع وتعيد له اعتباره، من أجل ذلك هم مهمومون بحمل تبعات الواجب الانساني في سعيه من أجل "تحديث الحياة"، ونشر الثقافة الأيروسية كحق مضطهد، ودعم سبل ممارسة اللذة البهيمية وأن يعيش الجميع الحياة كما يحبونها من هنك ورنك وخلاعة، وبما يتواءم مع فهمهم للمعاصرة والحداثة، والواقع أن قوة السخط التي أعمت بصائرهم، كانت بلا عقل:

"ولم توجه في الأساس إلى التحديث في ذاته، بل إلى نوع من التحديث الذي لم يجلب على الناس نفعا، ولم يشعرهم بأي تقدم ملموس وانما جلب عليهم الضرر الشديد وزاد من احساسهم بالضياع ويرتبط بخيبة الأمل في مثل ذلك النوع من التحديث الفاشل والثورة عليه شعور بالتمرد والاحتجاج على مصادره والممثلين له، اى على القوى الصناعية الغربية التي لم تكتف بجعل الشعوب الأخرى تابعة لها، بل ان مخترعاتها وأفكارها، وخططها في التنمية قد جرت عليه الشقاء والتعاسة.

ويقترن بهذا شعور آخر بالتمرد والاحتجاج على الطبقات "المتغربة" داخل المجتمعات الإسلامية ذاتها، وهى الطبقات التي سعت - سواء بحسن نية أو مدفوعة بأطماع أنانية - إلى إدخال تلك المخترعات والأفكار والخطط إلى بلادها واغراء الشعوب بتبنيها"[1]"

---

١ - فريتس شتّيات (الإسلام شريكا. دراسات عن (الإسلام والمسلمين) ترجمة د. عبد الغفار مكاوي سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ابريل٢٠٠٤ص١٣٠.

وحين يصبح المواطن البسيط واقعا تحت تأثير برامج "الميديا" التابعة لسلطات القمع فقد يسهل عليها اقتياده إلى خارج نطاق التاريخ، كما تستطيع هذه "الميديا" المزودة بارشيف اليكتروني بلمسة خفيفة على أحد مفاتيحه أن تبهر عالمه وتجعله يرى في دقيقة واحدة مئات الصور المعدة باتقان في مختلف المجالات، ولا يخرج من عباءة هذا الوهم الاعلامي الا بمؤثرات بصرية تسوقه إلى الاعتقاد بأنه والجميع يستمتعون بالرعاية الصحية والوظيفية، ويغيب عن عقله أن "الميديا" لا تعدو عن كونها فخاخ منصوبة توقع الأغرار بين براثينها، لتمرير اتفاق مع دولة ما، أو اللعب على رأس قضية جماهرية، تستعمل في معالجتها لغة التضليل لا التوصيل.

وبما أن الابانة لغة: تعني وضوح الموقف، فذلك أمر مستحيل لا تتعامل "الميديا" معه، لا سيما إذا كانت المؤسسات التابعة لها تأخذ الجانب المضاد:

"فبين مسعى استمالة الجمهور وعدم التصدي لمقبولاته، وبين تمشية الحال وكسب الحال وكسب الوقت، تبتدع لغة التعميم الفارغة، وهى"اللغة" التي لا بد من رصدها على أنها من أوضح سمات التردي والإنحطاط والانكسار المشين أمام واقع لم تكن فيه "اللحظة" عابرة، بل هى على الأغلب شهادة خاسرة وذل حيث الزمن يصبح لصالح الصهيونية في سياقات الواقع الدولي الراهن، إن لم يتم انتشاله فعليا ليصب في مجرى استعادة الأرض العربية، لا الركض وراء الخسائر المستجدة!! "[1]"

* * *

١ - د. محسن الموسوي (العرب والتحدي) الموسوعة الصغيرة، دائرة الشؤون الثقافية والنشر - بغداد سنة ١٩٨٦ ص٢١و٢٢.

الجهاد المفتـرى عليه

على ما يبدو أن الوقت لم يحن بعد حتى يدرك سدنة الأنظمة العربية أن دول الغرب - بلا استثناء - أدارت ظهورها لقضايا العالم الإسلامي العادلة، وأن رعايتهم الكاملة لأمن اسرائيل جعلتهم ينظرون بارتياح لبحور الدم الفلسطيني والعراقي واللبناني المتدفقة على جنبات الطرق وبقايا الأشلاء الآدميةالمدفونة تحت أنقاض المدن المدمرة.

لقد اتفقوا سراً وضمنيا على أن المقاومة المشروعة "لحزب الله" في لبنان، و: حماس" في فلسطين تعد ارهابية الهوية، وأصبح النضال ضد المستعمر لا كما أقره ميثاق الأمم المتحدة من حق الشعوب المضطهدة،ولكن كما أقروه هم (تماشيا مع وجهة النظر الأمريكية) يعد إرهابا وعدوانا على الأبرياء(!!)

يقترب من وجهة النظر هذه بعض "العقلاء"، ومن يفضلون - تخفيف البلاء - أن يكون لهم نشاط أطلقوا عليه اسم النضال المدني السلمي، وهو تعبير مهجن، بلا أجنحة، طيب القلب، منتهى أمله أن يرى أمريكا ذات يوم تضغط على اسرائيل أوحتى تهمس في أذنها بتخفيف حدة أصوات المدافع ولا تفرط في إطلاق صواريخها على الأبرياء.

وإذا شاءت أن تضرب ووجدت في الضرب قيمة تحقق بغيتها في التوسع واخضاع منطقة الشرق الأوسط تحت سيطرتها وبمباركة أمريكية فيمكنها تحقيق ذلك دون أن تكلف نفسها عناء الافراط في استخدام القوة وإطلاق الصواريخ، وما دام يمكنها الاجهاز على المقاومة، فقد يكون ذلك أفضل إذا تم بأسلوب بعيد عن الوحشية، وأن من مصلحة اسرائيل دوليا أن تكون نيرانها المكثفة لإزهاق الأرواح "خفيفة"، فالإرهابي الذي يقاومها يمكن ان تقضي عليه رصاصة ثمنها شيكل واحد، ولا داعي مطلقا أن تطلق عليه صاروخا من صواريخ طائرات الاباتشي الذي يساوي عدة الآف من الدولارات.

على منوال الشفقة وطلب الرحمة تبنت بعض الأنظمة العربية هذا الأسلوب متوهمة انها بذلك تساهم في تخفيف فداحة المصاب الذي يقع على ضحايا الصلف الصهيوني، ثم سرعان ما أصبحت لغة رجال الإعلام، وقد اشترك معهم في تناولها بعض المرتزقة من أصحاب الأقلام الذين لا هوية لهم ولا غاية في الحياة سوى أن يصيروا خدما لكسب رضى أصحاب الأمر والنهي، وقد انضم إلى هؤلاء من تبنوا هذا الموقف إما اقتناعا به، أو لإرضاء الممولين الغربيين.

التمهيد لاحتلال لبنان سبقته حملة نظمتها الصهيونية العالمية بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية في شتى أنحاء العالم صورت المسلمين بأنهم شياطين وأفاعي وخنازير وارهابيين يعملون ضد الخصائص المميزة لهوية الحضارة الغربية: الدين، اللغة، فصل الكنيسة عن الدولة، سيادة حكم القانون، التعددية الاجتماعية.

قبيل دخول القوات الصهيونية إلى جنوب لبنان راحت اسرائيل تستصرخ الغرب، وتوضح لشبابه وشيوخه أن الانبعاث الإسلامي يهدد مستقبل حياتهم، فمنذ السبعينات وهو يشق طريقه بإعتداد، ووصل ذروته في نهاية القرن العشرين. وتضيف اسرئيل أن قوة الانبعاث وجاذبية الحركات الإسلامية دفعت بعض الحكومات للعمل على "أسلمة القانون" ففي إندونيسيا أكبر الدول الإسلامية من حيث تعداد السكان أُدمجت أفكار وتطبيقات قانونية إسلامية في النظام القانوني العلماني، وفي باكستان خلال حكم الجنرال ضياء الحق بذلت جهود مضنية من أجل اسلمة القانون والاقتصاد، وطبقت حدود الإسلام، وبُنى نظام يطبق الشريعة الإسلامية، وأُعلنت الشريعة على انها القانون الأسمى في البلاد.

ولكي تعمق مشاعر العداء ضد المسلمين صورت "الجهاد الإسلامي" على صدر صفحات جريدة "جيرو زاليم بوست" في شكل حية رقطاء تلتف حول

خريطة العالم، وقد خرج من فمها لسان يقطر بالسم فوق بلدان العالم الموضحة معالمها على صدر الخارطة، واجتهدت مخيلة رسام الكاريكاتير في أن يجعل جسد الأفعى منقوشا ببقع سوداء على شكل الغطرة الفلسطينية، ثم كتب تحتها بخط بارز: "الجهاد الإسلامي"

جاء الكاريكاتير كتوضيح لمقال كتبه "بارت يور" يقول فيه: "إن الخطر الذي يتهدد العالم أجمع في القرن ال٢١ هو الجهاد الإسلامي الذي يتخذ من الارهاب وسيلة للقضاء على كل ما هو ليس اسلاميا من الجزائر إلى افغانستان عبر غزة والضفة الغربية ودمشق والقاهرة والخرطوم وطهران وكراتشي حيث يتم بذر جذور الكراهية من أقصى العالم إلى اقصاه الآخر"[١]

الجهاد الإسلامي الذي يقض مضاجع العنصريين الصهاينة ومن اتشحوا بأرديتهم، هو العقيدة التي رسخها الدين في قلوب المسلمين تجسيدا للعلاقة التي تربط بين المسلم وخالقه سبحانه وتعالى وبين المسلم واخيه الانسان، فهى سلوك حميد مبني على أسس الاخوة الصادقة، وليس على العداء والمشاحنة:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات: ١٣].

ولا شك أن علاقة تنهض على هذا المستوى الراقي في السلوك لا بد أن تسفر عن وجود تعاون كافة الأخوة في الله:**{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [المائدة: ٢].

ومن بين أعطاف الروائح العطرة تتجسد علاقة المسلم بغير المسلم في تحديد واضح ودقيق، فإذا رفع غير المسلم يده بالتحية والسلام والتعاون، وجب على المسلم ان يرد على هذه المعاملة بمثلها أو بأحسن منها، أما الذي يعتدي على حقوق المسلمين أو يسئ إلى كرامتهم او اعراضهم، فإن الإسلام يأمرنا بالدفاع عن أنفسنا دون أن نكون نحن المعتدين:

---

١ - المرجع: محمد سلماوي (الحية الرقطاء والعجز العربي) مقال. جريدة الأهرام٢سبتمبر٢٠٠٢.

{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَـدِينَ} [البقرة: ١٩٠].

وفي عام ١٩٨٢ اجتاح الجيش الاسرائيلي جنوب لبنان وضرب بيروت بالصواريخ، فلم يكن أمام المقاومة الإسلامية التي فرض عليها القتال سوي أن تدافع عن أرضها وعرضها حتى دحرت فلول الجيش الاسرائيلي وأخرجته من البلاد يتخبط في هزيمته، غير أنه تمترس في نقطة على الحدود وظل يحاول من مزارع شبعا فرض سطوته على منطقة الجنوب اللبناني.

وفي يوليو ٢٠٠٦ عاد مرة أخرى لمقاتلة المسلمين آملا أن ينتهي في خلال أربعة ايام من السيطرة على لبنان حتى يتسنى لجيشه تحقيق خطته بغزو سوريا، ولكن المقاومة الإسلامية ازاء الدمار الذي ألحقه بالمدن والمدنيين راحت تذيق جنوده كؤوس الموت، ثم ما فتئ يدعي أنه لن يكف عن العدوان الا بعد ان يتخلى حزب الله عن أسلحته، وبعد أن يقضي تماما على شأفة المتدينين المتشددين.

وليس هنا مجال للمقارنة بين اعتداءات الصهاينة على كل من يمت للدين الإسلامي بصلة، وبين غزوات المسلمين في صدر الإسلام حينما كان المسلم يذهب في فتوحات السند وأطراف الصين وفرنسا وإيطاليا ليس بصفته مستعمرا باسم الدين، ولكن كان يذهب مبشرا بعالم تشيع فيه العدالة والرحمة والحق والتسامح.

وعلى عكس ما ذكر هنتنغتون من أن الأديان تصارع بعضها بعضا ولا تصنع سوى الحرب وقد غاب عن فكره أن الدين استُغل واستعمل كغطاء لنهب الأوطان واستغلال موارد الشعوب الطبيعية.

والدليل قديما نجده في الحملات الصليبية التي انطلقت من أوربا لاحتلال البلاد العربية، وحديثا قادته قوات التحالف الصليبي حتى استولت على

أفغانستان والعراق بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبمباركة حاخامات اليهود الذين صاحبوا الجنود الاسرائليين المشاركين في العدوان على العراق وهم يرفعون في مقدمة الصفوف صفحات التلمود، داعين بإسم إله الحرب "يهوه" أن ينصرهم في حربهم على الإسلام والمسلمين.

كذلك فعل "بوش" تماما حيث وقف على رأس قوات المارينز يشعل في الجنود الحماس متشدقا بآيات من الانجيل لكي ينمي حاسة الارهاب في نفوس مقاتليه، زاعما أن الإسلام يحمل بين سطور ثقافته مشاعر عدوانية لحضارة الغرب وهو - الإسلام - يرفض الحياة التي نعيشها ويحارب منتجاتنا.

وتعقيبا على مزاعم "بوش" لم أجد أبلغ من الرد عليه إلا في حديث جاء على لسان مسؤول سعودي كبير في التسعينات:

"المستوردات الأجنبية هي أشياء جميلة وبراقة مثل التقنية العالية، ولكن المؤسسات الاجتماعية والسياسية غير الملموسة المستوردة من أي مكان آخر يمكن أن تكون هدامة.. اسألوا شاه إيران.... الإسلام بالنسبة لنا ليس مجرد دين ولكن أسلوب حياة.. نحن السعوديين نريد ان نتقدم ولكن ليس بالضرورة أن نكون غربيين".

إن إعطاء القيمة للدين هو الحصول بالمقابل على قوة روحية تزوّد الشعوب المضطهدة بقوة تحميها من التصدع، وهو القيمة المثلى في مواجهة أمم اخرى مهيمنة، ويلاحظ ويليام ماكنيل:

"أن إعادة توكيد الإسلام، مهما كان نوع شكله الطائفي، يعني رفض النفوذ الأوربي والأمريكي على المجتمعات المحلية، السياسات والأخلاقيات"[1]

ومع إصرار "بوش" العدائي فانه عندما يلتقي بحاكم عربي يحاول التمويه عليه مدعيا بأنه ليس ضد الدين الإسلامي وانما ضد المتشددين فيه.

---

١ - نقلا من صدام الحضارات لصموئيل هنتنغتون ص٢٠١.

وحقيقة الأمر أن المتابع لحلقات التاريخ والتطور يرى بجلاء عظمة الإسلام وهويقر ويؤكد على سمو الديانات السماوية ويؤمن برسالتها ويرى الأديان الأخرى يتنافى بعضها مع بعض، فاليهود ينفون المسيحية والمسيحيون ينفون اليهودية، أما الإسلام فسيظل الشكل الأكمل للديانات والمثل العليا:

"إننا اليوم نعيش مرحلة حروب دينية منذ انهيار الاتحاد السوفيتي وتدمير العراق على يد أمريكا، بل إننا نعيش نوعا من الاحتلال شبه العالمي يفرض علينا نظرته للحياة، تلك النظرة المبنية على آليات السوق وعلى أن يصبح فيها كل انسان عدوا للآخر، وبالتالي فقد أصبحت الحرب: الكل ضد الكل، وأصبح الدين السائد هو إلهية السوق التي تجرد حياتنا من كل معنى"[1]"

يشهد واقع الحياة أن قادة المسلمين لم يكن بين مهام جيوشهم فرض الإسلام على الشعوب بقوة السلاح:**{فمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}** [الكهف: ٢٩] بكل نصاعة ووضوح. كفل الإسلام حرية العقيدة ودونما ضغط أو الزام أحد برأي ما، وقد أوضح سبحانه وتعالى للعالمين:**{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: ٦].

وفي هذا السياق، يلاحظ أن في بلاد الغرب عشرات الجاليات الأجنبية من أجناس مختلفة، ينعمون بالعيش ويتمتعون بحقوق المواطنة إلا المسلمين فانهم معرضون للإيقاف والتفتيش بأساليب مباحثية تظن انها تعمل على إعاقة وتخويف "الإسلام الحضارة المتحدية للحضارة الغربية".

المشاركون في هذه الأعمال العدوانية تربوا على الكتابات الإعلامية وتشبع وجدانهم بصورة أدبية وفنية معجونة بمداد من الضغائن وزرع الأحقاد حتى أصبح الاتجاه اللاإنساني سائدا من خلال الهجمات العنصرية التي ألحقت بالمسلمين الأذى قبيل حادث البرجين في الحادي عشر من سبتمبر، وهى الأحداث المؤسفة التي وقعت على المسلمين الباكستانيين في بريطانيا وبرز

---

١ - المرجع: حوار رجاء جارودي "المسلمون لا يحتكرون الصواب". مجلة أدب ونقد - يونيو ١٩٩٣ص٢١.

لوبيان في فرنسا ومطاردة اليمين المتطرف في ألمانيا للمسلمين، ومن المثير للإنتباه أننا لم نر قلما حرا في بلاد تدعي الحريات والديمقراطيات يدين هذا العدوان، لأن وراء حملات التحريض كان يقف اللوبي الصهيوني في كل من فرنسا وانجلترا وجماعة "إيباك" في أمريكا.

وإذا عدنا إلى الذاكرة فسنجد أمريكا قد وقعت في أيدي المرابين اليهود، وحين وصلوا إلى ادارات المصارف أدرك الرئيس "توماس جيفرسون" عام ١٧٨٧م مدى الخطر الذي يحدق بمستقبل بلاده فأعلن بصراحة قائلا:

"أنا أؤمن بأن هذه المؤسسات المصرفية أشد خطرا على حرياتنا من الجيوش المتأهبة، وقد خلقت بوجودها ارستقراطية مالية أصبحت تتحدى بسلطانها الحكومة، وأرى أنه يجب استرجاع امتياز إصدار النقد من هذه المؤسسات وإعادته إلى الشعب صاحب الحق الأول فيه"[١]

ثم أعلن الرئيس الأمريكي "بينيامين فرانكلين" في شجاعة عن مدى ما يشكله اليهود من خطورة على العالم حين حذر مواطنيه سنة ١٧٨٩م قائلا:

"هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر هو "اليهودي".. أيها السادة، حيثما استقر اليهود نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب، لقد كونوا حكومة داخل الحكومة، وحينما يجدون معارضة فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما يحدث للبرتغال وأسبانيا، ومنذ ١٧٠٠ سنة وهم يندبون مصيرهم المحزن لا لشئ إلا إدعاؤهم أنهم طردوا من الوطن الأم"[٢]

قد لا يصدق أحد من أبناء اليوم أن هذه المواقف الصريحة والضمير الحي التي كان يتسم بها رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يتحول اللاّحقون

---

١ - المرجع: وليام غاى كار (أحجار على رقعة الشطرنج) دار النفائس. ترجمة سعيد جزائرلي. ط الثالثة. بيروت ص١٢٧.

٢ - المرجع: لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا "إسرائيل من الشتات إلى الاستعمار" مكتبة الإيمان المنصورة ط أولى.

منهم إلى أبواق ويقعوا بين براثن الصهيونية العالمية حتى تحولوا إلى قطع صماء من الشطرنج، يحركها اليهود بحذق على أية رقعة يختارونها من سطح الأرض، وكلما أدلوا ببيان والتف حولهم عدد من الصحافيين، كانوا لا يدعون الفرصة تمر دون أن يحملوا على الارهاب والإسلام الذي انتشر بحد السيف، واضطهاد المسيحيين في مصر.

وغاياتهم الخبيثة أن يزجوا بنا في أقفاص الاتهام، وأن نقطع أعمارنا في الدفاع عن ذواتنا ومحاولة ابراء ذمتنا من كل ذنب ارتكبناه وكل ذنب لم نرتكبه، حتى نستهلك قوانا ونبدد طاقتنا، ولا يصدقوننا إلا إذا أعلنا عن الرضوخ والاستسلام لمخططاتهم، حينئذ نستحق الفوز بصكوك الغفران.

اللعبة اذن أصبحت مكشوفة، وشعوبنا العربية لم تعدغريرة، فأساليب القهر وسياسة التجويع وقطع المعونة الأمريكية عنا - لمصلحة الكيان الصهيوني - لم تعد تجدي.

من ثم. نود أن نوضح لمن التبس عليه الأمر، أو وقع فريسة للأكاذيب الصهيونية والتي تتبناها أمريكا، وتطالب - بين وقت وآخر - بتشكيل لجنة أو ارسال وفد من الكونجرس للتحقيق في هذه المزاعم.. نقول: ليس في تاريخ الفتوحات الإسلامية ما يشير من قريب أو بعيد بأن الدين الإسلامي انتشر بحد السيف، ولمن يريد التأكد من صحة كلامنا يمكنه الرجوع إلى سجلات الكنيسة المصرية فهى تشهد على ذلك:

"فالإسلام لا يعترف بايمان المكره، ولا يكون اعتناقه الإسلام الا عن طريق الإيمان الحق والارادة الحرة والاقتناع المباشر، وأية شبهة قهر أو تدخل تفسد هذا التدين، وتجعل منه أمرا غير مشروع ولا يعتد به.

وعلى كثرة ما عرف تاريخ الإسلام من حكام الجور والاستبداد،الا أن أيا منهم لم يكن يجرؤ على المساس بهذا الأصل من أصول العقيدة الإسلامية، وهو

أنه "لا إكراه في الدين... "[1]"

وثمة حقائق أثبتها التاريخ، إن جدران الكنائس لم ترتفع وتدوي أجراسها في بلد مثل مصر، وهناك ما يزال ماثلا أمام العيان، فقد بنيت أول كنيسة في الفسطاط إبان ولاية "مسلمة بن مخلد" بعد عشرين سنة من قيام الفسطاط على أرض مصر، ثم اقيمت كنيسة مار جرجس في حلوان، وكنيسة الشمع الأرذثوذكسية في عقر حصن بابليون، وكنيسة (ابو قير)، ومئات غيرها أقيمت في العصر الراهن.

وتحت ظلال مبدأ إطلاق حرية العقيدة الدينية، تمتع الاقباط بممارسة الشعائر وآداء الصلوات وأصبح لهم نصيب في ادارة شؤون البلاد على نحو لم يحظوا به أيام القهر والاضطهاد في العصر البيزنطي والروماني.

ومن شواهد الفتح العربي الإسلامي لمصر الذي لم يكن بحد السيف ما أوجزه عمرو بن العاص حين قال مخاطبا الجنود:

"استوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا، وإياي والمشمومات والمعسولات، فانهن يفسدن الدين، ويقصرن الهمم

حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، واستوصوا بقبطها خيرا، فان لكم منهم صهر وذمة، فعفوا أيديكم، وفروجكم، وغضوا أبصاركم**».

نسوق هذا الحديث بعد أن إذاعت وكالات الأنباء العالمية أخبارا تفيد أن قوات الجيش الإسرائيلي دمرت مدينة قانا بالعتاد العسكري المصنّع في أمريكا التي تدين بالمسيحية.

وبعد أن اجتاحت مدينة بنت جبيل اتجهت ناحية بلدة صور وبعلبك والقت

---

١ - المرجع: جمال بدوي (كيف دخل الإسلام قلوب المصريين) جريدة أخبار اليوم ١٥ مايو١٩٩٩.

القبض على ستة من المدنيين مدعية أنهم مقاتلون من حزب الله، ومضت في طريقها تدمر محطات المياه والكهرباء والكباري والجسور.

وفي اليوم الخامس والعشرين من بدء القتال حطم الطيران الاسرائيلي منازل المدنيين في منطقة البقاع اللبنانية على حدود سوريا وكأن اسرائيل ترسل للعرب انذارا باقتراب ضرب سوريا وجرها في المعركة.

وحين ارتفعت بعض الأصوات مطالبة بوقف القتال، قالت "كونداليزا رايس" ابنة القسيس السابق بعد أن زارت اسرائيل مرتين خلال شهر يوليو ٢٠٠٦: "يمكن النظر في وقف اطلاق النار بعد اسبوع".

أما أنتوني بلير رئيس وزراء بريطانيا وهو مسيحي آخر يؤدي بجدارة دور ذيل أمريكا الناعم فقد طالب في بداية شهر اغسطس ٢٠٠٦ من دول العالم أن تقدم مزيدا من التعاطف مع دولة اسرائيل.

هذا الدعم المعنوي واللوجستي دفع يهودا أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي أن يصعر خديه وينفخ أوداجه قائلا: "لن نتوقف عن الحرب الا بعد وصول قوات دولية تفصل بن قواته ومقاومي حزب الله"، كما ان امريكا وبريطانيا وقفتا ضد اصدار قرار بوقف القتال في اجتماع الدول الاوربية الثمانية الذي عقد في ايطاليا بعد عشرين يوما من غزو الجيش الإسرائيلي للبنان دون أن يستطيع تفتيت قوى "حزب الله" أو يقضي على طموحه في تحرير بلاده، ومعنى وقف القتال والحال هذه فان ذلك يعني هزيمة اسرائيل.

إن هذه اول مرة في تاريخ الحروب التي تشنها اسرئيل ضد الدول العربية ومنذ ولادة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين أن تفاجأ براجمات صواريخ "حزب الله" تدك مدينة "صفد" و"حيفا" و"نهاريا"، ويعلن الشيخ حسن نصر الله محذرا مساء يوم الخميس ٣أغسطس٢٠٠٦ إن لدى المقاومة المزيد من الضربات

الموجعة وإذا أقدمت اسرائيل على قصف "بيروت" فإن صوراخ "حزب الله" ستدك جدران "تل ابيب".

لقد التقى الاسرائيليون مع امريكا في تنفيذ التاكتيكات العدوانية ونقل المعارك خارج حدودهما، ولكن "حزب الله" حطم هذه الخطط ليذيق الصهاينة رشفات من كؤوس العذاب، او بعض ما تعودوا أن يذيقوه للآخرين، وهم يتخبطون في الأخطاء الفادحة حين يعيدون صياغة المشاكل التي بينهم وبين الدول العربية ويحيلونها إلى صراع بين الموسوية والإسلام:

"والخطأ الأكبر الذي يمكن أن تقترفه دولة اسرائيل الآن هو أن تنسى أو تتجاهل أنها نفسها خطأ كبير وخطأ متعمد ولا يغتفر، الفكرة الأساسية لما أقصد أن أقوله هى أن جلب مجموعة من المهاجرين الأوربيين اليهود في منطقة تسودها أغلبية من السكان العرب المسلمين من أجل بناء دولة يهودية هو السبب فيما تشهده منطقة الشرق الأوسط من حروب وصراعات مستمرة منذ ما يقرب من قرن من الزمان، وما نراه الآن من تصعيد عسكري يدفع ثمنه الباهظ المدنيون، اسرائيل الآن في مواجهات مع حزب الله في الشمال ومع حماس في الجنوب لكن عدوها الأزلي سيكون التاريخ نفسه"[1]".

والتاريخ يسطر بالدم حروفا من النار، في اليوم الخامس والعشرين من بدء القتال، تدك طائرات الصهاينة بيوت المدنيين في منطقة البقاع اللبنانية على حدود سوريا، وكأنها تتهدها بالويل والثبور وتقول لها انها قادمة.

ولم نفاجأ بحركة المسيحيين الجدد وتكثيف جهودهم في أروقة مجلس الأمن، وبضغوط أمريكية أصدر المجلس قراره المخزي بايقاف اطلاق النار دون أن يذكر شيئا من حل لمشكلة مزارع شبعا المحتلة ولم يدن اسرائيل عن

١ - المرجع: ريتشارد كوهين (إسرائيل خطيئة كبرى) جريدة أخبار اليوم ٢٢يوليو ٢٠٠٦.

الجرائم التي ارتكبتهاولا عن الأسرى اللبنانيين المحتجزين لدى اسرائيل منذ نحو ثلاثين سنة، وإنما طالب بالافراج عن الجنديين اللذين أسرتهما قوات "حزب الله".

وعلى طريق مستقبل بناء كيانات شرق أوسيطة جديدة تزداد رقعة طموحات الولايات المتحدة اتساعا، خاصة في غيبة الأنظمة العربية التي لا تريد أن تفهم أن جلوسها على كراسي الحكم سوف تقتلعه - وهى لا تحرك ساكنا - العواصف المعبأة بأنفاس الصهيونية ومباركة المسيحيين الجدد، ومن لا يزالون بين وقت وآخر يحكون عن العسف الذي لحق بالشعوب التي خضعت لجيوش المسلمين.

ولن نتحدث عن قادة الفتح الإسلامي للسند والصين، ولن نذكر شيئا من مآثرهم، بل دعونا نتريث هُنيهة تحت سقف البيت المصري، بعد أن أصبح يتكون من آباء عرب وأمهات مسيحيات حتى ظهور الجيل الأول من الأبناء الذين ينتمون بعمومتهم إلى العرب وبخؤلتهم إلى القبط.

في هؤلاء وهؤلاء ذابت الفوارق العرقية وانصهروا في نسيج واحد، هو شعاع جديد من فجر ذلك التاريخ حتى اصبح ركيزة هامة في أسس قواعد الحضارة الإسلامية.

وحول ما أشيع عن المظالم فبعضها مغلوط وبعضها مغال فيه، ومن الحكايات المغلوطة ما يردده أعداء الإسلام، أن قسوة الحكام لطخت حياة الشعب بالدماء، وقد أنبأهم تاريخ الشرق أن تلك كانت دوما حال البشر:

"كما ان القرآن ومفسري هذا الكتاب المنزل من عند الله قدر لهم أن السلطان كان من نسل النبي، وأنه نائب عن الله، وان الصبر أول فضيلة ينبغي

أن يتحلى بها المسلم، وأن الطاعة العمياء هى أهم واجبات الرعية"[1]".

ولكن من حيث اندماج العنصرين المسلم والمسيحي فإنه لا يوجد في مصر تفرقة طائفية ضد الاقباط، وهذه حقيقة يؤكدها جورج يونج في كتابه (مصر) عندما يقول لا توجد هناك تفرقة من تلك التي تعاني منها الأقليات الضعيفة في أوربا، كما يذكر أن تاريخ الأقباط يكشف عن أنهم عانوا ضيما من أهل ديانتهم المسحيين الأرثوذكس، أو الكاثوليك أكثر مما عانوا من أهل وطنهم المسلمين، وإذا كانت هناك مظالم وقعت على الأقباط فلم يكن مبعثها الاضطهاد الديني:

"وانما العسف المالي، بدليل أن المصريين قد عانوا من هذه المضايقات بنفس القدر، ولا يعني اعترافنا بهذه المظالم، التسليم بأن أهل الذمة قد عاشوا حياتهم في ظل اضطهاد متواصل، فإن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد عاش أهل الكتاب يتمتعون بكل حرياتهم الاجتماعية والسياسية، وارتفعوا في وظائف الدولة، وتولوا المناصب الهامة، كما نعموا بحرية تنظيم جماعاتهم داخليا تحت رئاسة يختارونها في ظل الإسلام"[2]".

وبخصوص ما يتعلق بمفسري كتاب الله ومن يملي عليهم استصدار فتاوي تربط السلطان بنسل النبي فان القرآن الكريم والتفسير بريئان من هذه الأباطيل، ولكن ذلك هو أسلوب من يستهدفون الإسلام ويحاولون طعنه في قرآنه وتزييف مصادره، وتزييف شخصية النبي ﷺ عن حقيقتها المعروفة من سُنته وسيرته وهديه.

وإذا كانت الأنظمة العربية - في السنوات الأخيرة - أقعدها العجز والإستسلام تحت معاول الصهيونية والمسيحية الجديدة، ولا تستطيع التصدي

---

١ - المرجع: ادوار جيبون (إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) ترجمة محمد علي أبو درة جـ١ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ص٦١.

٢ - المرجع: د. قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في العصور الوسطى.

بايجابية، أو ترد على من يضعون الجهاد في سبيل الله تحت بند الارهاب، فان قبط مصر منذ خلافة الراشد عمر بن الخطاب قد رأوا الإسلام يساويهم، ويجعلهم إخوانا في كل شئ.. يذكرون أنه أسهم لهم في الفيء ولا يفرض عليهم الجزاء، فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام، ولا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا، وحطم عقيدتهم باضطهاده.

وفي ذلك. يذكر الأسقف "حنا النتيوس" - الذي شهد الفتح الإسلامي - أن جيش المسلمين كان يرافقه مصريون كفروا بالمسيحية واعتنقوا ديانة عمرو بن العاص.

* * *